احكي يا شهرزاد

احكي يا شهرزاد

مجموعة قصصية

جيهان جمال – دينا أبو الوفا

احكي يا شهرزاد

اسم الكاتبة: جيهان جمال – دينا أبو الوفا
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: أحمد فخري الأسواني
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى
رقم الإيداع: 2018 / 23014
الترقيم الدولي : 978 – 977 – 6610 – 37 – 8

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

الإهداء

إلى الأيام التي أتعلم منها الكثير.. أتمنى أن يكون القادم مطمئن.. أجمل .. أطيب .. أهدأ.

جيهان جمال

إلى المرأة المصرية .... والتي لا أرى لها مثيلاً على وجه الكرة الأرضية
المرأة التي تغار على عروبتها وتفتخر بجذورها المصرية الأصيلة فى كل زمان ومكان
المرأة المرحة خفيفة الظل ذات الملامح الفاتنة،
المرأة المحبة لبيتها وأولادها، الوفية المخلصة لزوجها
المرأة المضحية الحمولة والتى تحمل على عاتقها أحياناً كثيرة الوصول بقارب عائلتها الى بر الأمان
المرأة العاملة المجدة الجادة المجتهدة الناجحة
إليك عزيزتي أهدي كلماتي لعلك تجدين بعض منك بين السطور

دينا ابو الوفا

لحظات فاصلة

جيهان جمال

(١)

٢٠١٨ ليلة صَيفية

.. تجلس ساهى بشرفة منزلها المُطلة على مرآة حنين يشتهي دوماً مَحو الكثير مما فات .، ولكن كيف السبيل؟ ليروادها التأمل أحياناً فى كل مامر عليهَا من أحداث. وغالباً ما يزورها هذا الشعُور، ويراودها بإلحاح بهذا التوقيت من كل عام . تحاول أن تنسى ، أو على الأرجح تتناسى .. فتستأنس برفقة فنجان شاي مذاب به حبات القرنفل مع نسمة صيفية .. تداعب خصلات شعرها البنية الحائرة بهدوء ، وهى تراوغ رموشها فتطرف عينيها. لتنزل الدمعة مرغمة من هاتين العينان .. فتصاحب كل هذا، و مايحلو لها من الذكريات .فتلك هي أشيائها المُعتادة، والتي ماعاد يصاحب وحدتها غيرها. تلك الوحدة التى أرتاحت مؤخراً معها .. و هى غير نادمة على هذا الاختيار الهاديء . لكن قلبها يضعها رغماً عنها عند تساؤلات موجعة فتحادثه قائلة:

ماعُدنا كما كُنَّا .، وماعاد زماننا هو ذات الزمان .. فهل يتغير الزمان، وهو يدور بنا فى دوامات فُلك الأيام؟ وهل المكان لا يَتغير بالنسبة للبعض .. فيظل ثابت فى ذاكرة الوجدان رغم الرحيل. على الرغم من أنه يتلاشى نهائياً مع البعض الآخر . تفيق ساهي من غيم تساؤلاتها .. على صوت رياح غير عادية .. أتت لتلفح وجهها بهذه الليلة الصيفية الساخنة .. حتى كادت أن تخلع قلبها من مكانه، قبل أن تلقي بهذا القلب البرئ تلك التقلبات فى مهب الريح . تقرر أن تغلق الشُرفة بعد أن خرجت منها .. و تدخل إلى غرفة نومها .. لتستلقي على سريرها الذي لا ترتاح إلا فيه . فخلعت عنها روبها الأسود الحريري الفضفاض .. ثم

أخذت تقلب بالراديو الذى يرافقها دوماً على الكيمود المجاور لسريرها .. لتتوقف بمؤشره عند محطة البرنامج الموسيقي في محاولة جادة منها لأن تستسلم للنوم .. على الرغم من أن تلك الليلة بالذات ليست ككل ليالي العام ..رغم مرورها على ذات وتيرة الشجن . فجفاها النوم ، وراح يعاندها هو الآخر .. لتمد يدها لتمسك بالموبايل المجاور لصورة ولديها ، الموضوعة على الكيمود الآخر . وراحت تفتحه لتتصفح صفحتها على الفيس بوك، وإذ بها تفاجأ برسالة على الخاص من أخيها الذي يصغرها بسنوات. لترى سطورها المقتضبة، وكأنها كادت أن تصرخ .. ثم تبكى لها من شدة الأنين . كانت الرسالة تفيض بوجع لم يتحمل الوقوف سوى عند أربع كلمات ، وفقط .، لكنها كانت كفيلة أن تنسيها وجعها منه . كتب مراد " أنا تعبان قوي ياساهي "

تلك كانت الكَلمات البسيطة .. التى أوجعتها .. دون شرح منه للمواقف التى أودت به إلى كل هذا الكم من الألم .. الذي كسر قلبها ، وهز كيانها كله بهذه اللحظة الفاصلة . لم يجد قلب ساهي سبيل سوى أن يتصل بهِ على الفور . فكُل ماتريده فى هذه اللحظة الفاصلة لجريان الدم الواحد فى العروق ، وضخه بقلب الأخوة الصادقة منها أن تطمئن عليه بسماع صوته. ليرد عليها بلهفة حارة تحرق القلب الموجوع .. فتسأله ما به ؟ ليجيبها بأنه يمر بأصعب ظروف بحياته .. منذ وقت طويل . ثم يشرح لها كيف وصلت علاقته بزوجته لنقطة اللا رجوع ، وكيف أنه محروم من ولديه ، وبيته .. بل و مهدد بالطرد من عمله .تهدىء من روعه .. ثم تطيب خاطره .. بل، و تخبره أنها بجانبه، وماعليه الآن سوى أن يتوضأ، ويصلى ركعتين يطلب فيهما العون من الله ليخرج من تلك المِحنة القاسية

(٢)

ودون تفكير فيما مضى، و أسباب الفُرقة التى حدثت بينهم كأخوة، ووقوف هذا الأخ الصغير موقف المتفرج الغريب عليها. لم تملك ساهى أن تسيطر على حالة الحزن الشديد جداً التى غرقت فيها بعد أن أغلقت الموبايل مَعه . أوجعها ما آل إليهِ حال أخيها الصغير .. بعد أن رأته بعيون قلب الأم، وليس بعقل الأخت . وكأنه صار بلحظة فاصلة كورقة بيضاء .. فرغت من كل ماخطه فيها .. بجهده ، وعرقه ، وبدأت تطير فى مهب الريح . بعد أن محى بضعفه الذى تعرفه جيداً .. تعب، وشقاء سنوات و سنوات كان نحتها مراد بدمه فوق سطور الأيام بتلك الحياة . أحياناً لا تقدر أن تحكم على شخصية مراد حكم قاطع . فهي تراه دائماً طفل أهوج ورجل غير مسئول لكنه أبداً لم يكُن جاحد . وهو بالأخير يحتل جزء كبير من مشاعرها كأُم ، ومن الممكن جِداً أن يميل إلى حد التطابق مع مشاعرها تجاه ولديها . فمراد فيه الكثير من الصفات و السلوكيات التى تعمل على تقويمها، وترفضها تماماً فى أبنها الأكبر .والدليل هذا الوجع الذي أحتلها سريعاً منذ لَحظات . تَتذكر ساهى كَلماتها مَعه حين كانت تقول له ، ولأبنها . أن من لم يحترم قانون الحياة تدهسه الحياة تحت أقدامها . تتذكر نصائحها الغالية له كأُم ، و أخت كبرى تخاف عليه من رعونته، و أحياناً كثيرة من سذاجته، وتخشى عليه من شطحه ومن لفحة نسمة الهواء الطائر كولديها تماماً . فمحبة مراد فى قلبها لازالت كما هى . ولازالت تتذكر وصية والديها لها على أخوتها . ولازالت أيضاً تُخبر والديها فى كل حين عبر رسائل الروح .. أنها لم تخون الوصية، ولم تتخلى عنهم، وأن أخوتها هم الذين تخلوا عنها . فكيف بعد كل هذا تتخلى عن مراد؟

لكن هل مراد سوف يستوعب الدرس القاسي، ويفيق لحاله. تحتار ساهي فى إجابة السؤال .. ثم تحاول أن تهدأ فما عادت أعصابها وصحتها

تحتمل تقلبات الليالي وكأن تقلبات الليلة الصيفية التى كادت أن تلقى بقلبها فى مهب الريح منذ قليل .. وأغلقت ساهى باب الشُرفة فى وجهها على أثرها .. ترصدت لها، و أصرت أن تداهمها ثانية. لتقلق راحتها بمخدعها ، حتى أنها لم ترحمها حتى في ليلة عيد ميلادها . صحيح أنها رفضت منذ سنوات قريبة أي عرض من عروض المحبة التى يدعوها أليها ولديها، وبخاصة أبنها الأصغر ، وزوجته للأحتفال بعيد ميلادها . لكنها على الأقل من حقها الآن أن تشعُر ببعض من تخفيف أعباء الحياة ، وبخاصة ، وهى تضع قدميها بمُنتهى الحيطة و الحذر على مشارف عتبات الخمسين من العمر

خريف ٢٠١٠

تعود ساهي مرغمة مع تلك اللحظات إلى تفاصيل لا تحب الوقوف كثيراً عندها . تعود لوقت كانت أختهم تقف منها ، ومن ولديها. موقف العدو المتربص .. حين أخذت عليهم وصل أمانة دون علمها .. أثناء أتمام عملية تجارية بينهم . إذ أنه لم تكُن ساهي راغبة منذ البدايات باستمرار العمل بين ولديها ، وأختها .بعد أن شعرت بتشكيك ، وفرض سوء نية من ناحية أختها .. لا يصح أن يكون بين الأهل . لذا خشيت أن تحدث خيانة مستترة من أختها ، وزوجها منذ العملية الأولى . أما عن أستسلام أخيها مراد لكل الحكايات الغير صادقة ، وانصياعه للأوامر التى كانت تلقيها عليه أختهم لحاجته ومنفعته الخاصة عندها لشراكته مع زوجها آنذاك بأعمال تجارية . فكان ذلك هو الخنجر الطاعن فى قلب ساهي . فلم يفكر مراد للحظة فى الرجوع إليها .. فكم تمنت أن تلمس منه محاولة السعى للوقوف عند كلمة حق .. أو محاولة اتصال واحدة بها يشعرها من خلالها أنه أخ و سند . للأسف صار مراد مفرط جِداً ، و دون تفكير فى أبسط حقوق الأخوة ، و مراعاة صلة الأرحام ، و مكتفى بدور المشاهد

.تتذكر ساهي أنها هي التي بادرت بالاتصال به حين بلغ الأمر ذروته بينها ، وبين أختها التى أدخلت ولديها المحاكم . فطلبت منه ألا يقف مع أحداهما ضد الأخرى ، وعليه فقط أن يكون حمامة سلام بينهما . فأوصته أن يقنع أختهم أن تأخذ باقي حقها ، وفقط، وليس المبلغ المالي الكبير المكتوب بوصل الأمانة ، والذي وصلها بالفِعل .، الجزء الأكبر منه على مدار وقت مضى . لم تتردد ساهي لحظة فى توسيط أخيهم مراد لأنهم أخوة ، ومن المفترض أنهم يعلمون طبيعة بعضهم جّيداً ، .ويعلم مراد جّيداً أيضاً أن ساهّى لن تكذب عليه .، أو أنهّا تّقبل ، وتستبيح ماليس من حقهم من أجل أنقاذ ولديها .. كما قبلت ، واستباحت أختهم . وراحت تستحلفه بكل عزيز، وغال .. كى يحاول بجدية أن يقف وقفة الأخ الواجبة .. بمثل تلك الظروف ، و إلاّ سيضطر أولادهّا لأستدانة المبلغ الكبير كّى لا تسجنهم خالتهم . لكنه لم يفعل أي شيء للأسف .. لتدرك ساهى من بعد تلك اللحظات الفاصلة أن أخوتهّا لم يراعوا الله فيها . و بالفعل أستدان أولادها المبلغ الكبير، وقبلته أختها دون وخزة ضمير . لذا تندم ساهي مراراً ، وتكراراً بسماحها بأن يعمل ولديها مع أختها ، وزوجها الذي كان يغار من أبيهم رغم فراقه الدنيا .. إلا أنه ظل يشعُر أمامهم حتى بعد موت والدهم بعقدة نقصه .. لمكانة زوج ساهي العلمية الرفيعة . لهذا كان من الواضح جِداً أن ساهى لم تكُن راغبة منذ البدايات باستمرار العمل بين ولديها ، وأختها .. بعد ما رأت من أختها وزوجها ومارأت منذ أرتباطهم . لكنها لم تكُن بقادرة على إبعاد ولديها بعيداً عنهم .. لعدم سماع ولديها بنصيحتها .، و أعتبار أنفسهم كبار بما فيه الكفاية . كذلك لم تلقى باللوم للحظة واحدة على زوج أختها .. فهو بالأخير غريب . كل العتب ، واللوم ألقته على أختها التي كانت تتعامل معها كأُم. ، وما لا قت منها غير كل جفاء ، .وسوء تربية ، و إساءة ظن . ولا غرابة أن هذه الأخت ظنت بولديها أنهم كسبوا مكاسب طائلة من وراء العمل معها، ولم يدر

بضميرها للحظة .. أن الخسارة بالفِعل واردة . تحاول ساهي أن تنزل قدميها من سريرها .. فتقف لترتدي روب أسود اللون من الحرير الفضفاض .. فوق قميص نومهّا الحريرى الأسود .. ثم تذلف قدميّا فى بالرينة ذهبية اللون . لتخرج من غرفة نومهّا .. بعد أن عَز عليهّا النوم. ، و تدخل أَلى غرفة الليڤنج روم .. فتّفتح التلفزيون .. عَلهّا تشاهد أي شيء ربما تخرج به من تلك الحالة التى لاتحب الوقوف عندهّا كثيراً و هكذا أيقظت الكلمات التى أرسلها مراد عيون هذه الليلة من غفوتها، و أشعلت بوجع حروفها جمر رماد ظنت أن السنين أخمدته.

(٣)

فتلك الليلة التى كان من المفترض أن تستقبلها ساهي بطريقة خاصة جِداً تليق بها. ، وبحفاوة أستقبال أيام كم تمنت أن تأتيها بشيء مختلف . و أنه من المفترض أن تصير تلك الأيام التى تتعايش معها الأن هى الأكثر هدوء، وراحة بال . بل ولما لا تحمل معها تلك الليلة فرحة تستحق لأن ترى ساهي الحياة بمنظور آخر. فهذه الليلة كُلما آتت فى كل عام لتَدُق على عتباتها من بعد أنتصاف ليلّها .. آتت معتادة الدقات التى تشي بالطرق على باب الذكريات ، وتصفح دفاترالأيام المغرقة في الشّجن . لذا آتت هذه الليلة لتُذكِر ساهي بوجع الغياب ، و كيف أنها قد كان لهّا القسط الأكبر من الألم .. فعَرفت أن تَدخل مدن الكّبار مُنذ أن فتحت عينيهّا على تلقي مسئوليات لا تخصها . صحيح أنها لم تَكُن مسئوليات من ذاك النوع الشاق جسدياً لطفلة فى مثل عُمرهَا .. ومثل وضع أسرتها . لكنهّا كانت مسئوليات أشد بكثير.. لأنهم بمُنتهى اللا مبالاة ، وعدم الأدراك .. ألبسوها ثيابهم الكبيرة . على الرغم من أعترافها بحنانهم الدائم عليها ، وعلى أخوتها . و أنهم لم يحرموهم من شراء دمى الأطفال ، واللعب بها . كمن هم فى مثل عُمرها . لكن أستيعاب ساهي مع مرور السنَّوات أن رعاية الأبناء لا تقتصر على تلبية أحتياجتهم من ملبس ، ومأكل ، و شراء اللعب ، وفقط . و أدراكها أن التوجيه التربوى الغير مباشر للأبناء بطريقة عيش الأباء ، والأمهات الصحيحة للحياة أَلى جانب بعضهم البعض . ربما كان سيكون لهّا مفعول السحر فى تكوين شخصية أولادهم بطريقة صحية ، وسليمة . و أن غلطة والديهّا الكبرى كانت أنهم تخلوا عن دورهم فى معالجة مشاكلهم بحكمة بعيداً عنهّا ، و عن أخوتها ، وتعتقد ساهي أنهم بسلامة نية فعلوا ذلك . فأشركوها هى بالذات لأنها الكبرى .. أَلى جانب أستعدادها الفطرى لذلك .. مما جعلهم يستبيحون مساندتها لهم ، وهى بعمر صغير حد

الأغراق . وهو ما أدى فيما بعد ألى عدم قدرتهم على حل مشاكل أخوتها التى كانت بالبدايات هوجاء صغيرة . كما يفعل كثيرين غيرهم إلى الآن .. و للأسف بمُنتهى الامبالاة على الرغم من أنتشار وسائل التربية الحديثة . بمرور الزمن .. بَدت ساهى تحزن كثيراً لأنهم حَرموها دون قصد أن تعيش ، وبحق مثل من هُم فى مثل عُمرهَا . وبدت تتسأل .. ألم يَكُن من حقها أن تعيش طفولتهَا دون ضغوط ؟ ولِما سمحوا لضمائرهم أن تترك اللعب ، واللهو رغماً عنهَا ألى حد ما ، و ينشغل قلبهَا البرىء بمشاكلهم . فتارة تصير ساهي تلك الطفلة الصغيرة التي ليس بوسعها فعل شيء . فتصمت حِينهَا حَزينة أمام كل هذا التناحر الشديد . وتارة أخرى تجدهَا تحاول السعي لأن تراضيهم ، وتصلح بينهم فلعبت دون قصد دور سفير السلام ، وأحبوا هم ذلك منهَا ، ودوماً كانوا يتباهون بذلك ..فيزيد لديهَا الأحساس بأنهَا قوية .. ويزيد مع هذا الأحساس حجم الدور الذي تبنته وسط والديهَا ثم بين أخوتها

ربيع ١٩٧٥ ليلة عيد الميلاد

ببيت الأُسرة الصغير .. المرتب بكل أثاثه المُحترم ، ومفروشاته الرقيقة . بفعل ميل الأُم للنظافة ، والنظام. ، والأناقة . والمدووش حين تدب الخلافات بفعل عصبية الأب ، والأُم معاً ، وعدم أدراكهم لمعنى مسئولية الخِلفة ، والعيلة . كانت تلك الليلة مختلفة عن ليلة العام الفائت .. إذ كانت ليلة العام الفائت .. هى ليلة الفَرح الكثير أمَا لَيْلَتهَا هذه .. فهي بمثابة الموعد الحقيقي مع بداية ليالي الحزن الكبير . حِين تُوفي أخيها الأصغر في ليلة عيد مِيلاده الأُولىَ . فليلة وُلِد أخيهَا الصغير من عام مضىَ .. كانت تلك الليلة بمثابة عيدين للأُسرة .. أحدهم بقدومه للدنيا ، و الأَخر أحتفالهم بعِيد ميلادها السادس . وكَما هي لعبة مُفارقات القدر معنا جميعاً كانت اللعبة تَحبوا إليها ..

لكنها أتتها مُبكراً جداً . وكما جَمعهم القَدر في ذات ليلة صيفية علي فرحة ميلاد .. سُرعان ما فَرقهم إلي الأبد . كانت ساهى في ذلك الوقت بالصف الثانى الأبتدائي .. حين أدخلها القدر مُرغمة بَوابة الأَحزان الكبيرة . إذ كان ذاك الحزن درس كبير، ولحظة من اللحظات الأُولىَ الفاصلة بحياتها ، والتى سَلكت معها مسلك عظيم من دروب الأنسانية . حِينَما ذَاقت طَعم الفقد ، و الْحُزْن العميق لأول مَرة . تَتذكر ساهي جيداً هذه المرحلة الهامة فى تكوين شخصيتها، وتدين لها بالكثير رغم قسوة مافيها . وكُلما عاودتها الذكرى .. كُلما أدركت كيف أنها بمشاعرها الطفولية البريئة كانت تذداد في تدليلُ أخيها الطفل الصغير البالغ من العمر حِينها عام واحد .. حين تقوم بعناقه ، و أغراقه في محبتها . و كيف كان تعلّقه بها ، وكأن هذه الطفلة صارت فى لحظات أُم لهذا الطفل . وهكذا كان وجهه الطُفولى البرئ هو كُل عَالمها السعيد حِينها . وفِراقه أيضاً صار كُل أحزانها التى عرفت معانيها فيما بعد . لتصير هذه اللّحظة هى المحطة الأولى فى الدخول إلي هذا العالم الملئ بفيض من مشاعر مُتباينة كثيرة .. مابين وجع الفراق ، وسعادة ذكريات اللحظات!

(٤)

كُلما تَذكرت ساهى هذا العام الذي كان هو عُمْر صُحبة حُبها لأخيها .. ثم فقدته بلحظة خاطفة .. خافت جِداً من لحظة فقد أخيها مراد . ورغم الأسى الذي طالها .. أنذاك بفعل الفقد .. إلاّ أنهّا رأت أن هذا العام الواحد الذي عَاشت فيه مع أخيهّا قريبة منه تداعبه . صاركافياً لأن تتشبع بحنان الأمومة ..فأحبت لعب هذا الدور الأنسانى ، وقت كانت تَلعب فيه رفيفات عُمرها بالدُمى . لتدرك فيما بعد أنهّا كَانت الأكثر منهن حظاً وسعادة .. لأن ذلك العام ..تلاه .. أعوام ، و أعوام .. عَاشت فيها بين أخوتها .. الأخت الكبرى بكل حنانها، فصارت مداد مُخلص جِداً للأمومة لجوار أُمهم .

خريف ١٩٧٥

يَعود والدها من رحلة عمل خارج البلاد كانت أستغرقت شهرين .. إذ كان والدهَا يعمل مُشرف فنى بشركة مقاولات بالسعودية. و كانت الأُم فَضلت ألاّ تبلغه أن طفلهم توفى من بعد سفره بشهر واحد .. بنصيحة من أختها الكبرى التى كانت تعيش بمدينة أخرىَ .. لذا فهما قلما تتقابلان . ليدخل الأب منذ وصوله في حالة حُزن أكتئابية وينزوي علي نَفسه لعِدّة أيام . فصارلا يتكلم مع أحد من أولاده أوزوجته منذ أن صُدم بالخبر حَال وصوله . ذات مساء .. تدخل ساهي على والدها حُجرة نومه فاستقبلها بين أحضانه ، وكأنها بأنامِلها الرقيقة قد دقت علي باب قلبه قبل إن تَطرق على باب حُجرته . نَظرت أليه بعيونها المُلونة بألوان البهجة، والشجن الحَزين بأن واحد . وكَأنهما غارقتان وسط دموع مُستترة في بحور من شهد حنان حزين . وهذا مايجعل نَظرتها البريئة، والدافئة تَأخذ من تحتويه هذه الطفلة بعينيها ألى عالم الكِبار .

ظلّت ساهي تطبطب بيديها الحانيتين على أكتاف أبيها ، و بصوت رقيق يحاول أن يخفي ارتعاشة قلب طفلة .. تقول : إفرح يا بابا .. عمرو عند ربنا . هو سبقكم للجنة . وهايخدك أنت ، وماما من أيديكم لما تروحوا هناك . تدمع عيون والدها ، وينظُر إليها باندهاشة .. لم تخلو من الإنبهار ، والإعجاب .. رغم غيم الأحزان . تتدارك ساهي الصغيرة معني نظرة أبيها فتُكمل قائلة .. الجيران كانوا بيقعدوا مع ماما .. فعرفت أنهم بيزورونا عشان يواسوا ماما زى قرايبنا .كلهم كانوا بيقولوا لازم نكون جنب مديحة ونواسيها . وبيقولوا كمان .. أن عمرو عند ربنا ، والملايكة .. صح يا بابا . يحتضنا أحمد ومديحة أبنتهم الحنونة ، ولا يستطيعان أن يُوقفا دموعهم . ولا يَدريان أي دموع تِلْك .. لكن الأكيد أنها دموع تتأرجح فيها الأحزان على فراق طفلهم مع الفرحة بطبطبة ساهى الصغيرة على قلوبهم . متسألين .. أحقاً هذه الأبنة الصغيرة التي تَسبق عُمرها ، وتفعل كل ذلك لتواسيهم كما الكبار هى أبنتهم . فيهدئان قائلين " .. لله ما أعطي ، ولله ما أخذ " وكأن تِلْك الكلمات البريئة من أبنتهم الصغيرة كانت بمثابة البلسم الذى طيب قلوبهم . أمّا أختهَا فكانت لا تشاركهم على الأطلاق أى من هذه اللحظّات الحانية .. رغم محاولات ساهي، وحرصها على أن تستمتعان سَوياً كأخوات بالمشاركة لكل ماتحمله الأوقات بالعمر . و هكذا ظلّت ساهى تذداد أحَزانها ببعد أختهَا الوحيدة ، والتى من المفترض أن تقاسمها أسعد اللحظات، وأقساها .. لكنهَا أعتادت ألا تستسلم للانكسارات .. فعاشت كما أرادت . فهى أرادت أن تُعَوّد نفسهَا على أن تكون تلك الأنسانة الفرِحة جداً بوجودها وسط أخوتها ، وأمها و أبيها رغم كم الخلافات . فبالأخير هى مُطمئنة لأن والديها معهم ببيت واحد على الرغم من سفر والدها المتكرر لعمله خارج البلاد إلا أنه حتماً يعود إليهم . كذلك أحساسها أنهم يعيشون أيضاً أفضل من غيرهم ، و أن لديهم بعض من أيام سعيدة ، كان يكفيها أنهم أسرة تعيش ببيت واحد تحت جناح

الأب و الأُم وبخاصة بعد أن لمست عن قرب، وهى بعمر صغير جِداً مدى معاناة زميلتها بالمدرسة من أنفصال والديها . كان هذا العمر الصغير سبب كبير فى أن جعلها غير مدركة لحالة المُعاناة التى كانت تكتشفها شيء فشيء بمرور الزمن. .فقد كبرت ساهي ، و أدركت بأنهم ظلوا يعانون لسّنوات بطريقة أو بأخرى تحت وطأة خلافات لا يد لهم فيها . أحياناً تكون تلك الخلافات تافهة، و أحياناً تكبر.. لكنها لم تكُن تنتهى أبداً بين أبيهم ، و أُمهم . وهكذا كانت تمُر السنوات بالعائلة بين حُزن يمضى لحاله .. لكنه ترك أشياء كثيرة كما البصمة داخل القلوب أكثرها تأثيراً كان على شخصية ساهى التى صارت كبيرة بلحظة فاصلة

شتاء ١٩٧٩

تمتن ساهى بأنها أعتادت مُنذ طفولتها أن تحرص كثيراً على مواساة ، ومحبة جميع من حولها . و أن ذلك لم يكُن يزعجها على الإطلاق .. حتى أنها لم تتذكر أنها كانت تبخل بأغداق محبتهّا على أختهّا النافرة منهّا سواء بدافع الغيرة .. أو بدافع چينات العصبية التى ورثتها عن والديهّا . فقد علمتها الأيام ، و جعلتها تستوعب أن هذا كان نصيب أختهّا من أرثها من والديهم ، وَمِمَّا كان يدور حولهّا بالبيت منهم أيضاً .. وماحاولت أختها أن تصلح من نفسها فى شيء .وحمدت ربها أنها ورثت من والديها حنانهم .. إذ كان إغداقهم بهذا الحنان على أخوتهم ، و الآخرين فِطري جداً . وكان هو الغالب دوماً علي طبيعة تصرفاتهم كما كانت ترى . كذلك عرفت ساهى فيما بعد ، ووعت أن مايحدث لها على مدار سنوات من شعور دائم بالقلق ، وعدم الشعُور المطلق بالأمان .. كان يعود آلى دوام تلك الخلافات بين والديهّا . فَسعت جاهدة أن تخفي مشاعرهّا السلبية ..الناجمة عن تصرفاتهم الغير مدركة لطبيعة عُمرهّا الصغير ، والقذف بكّم ليس بالهين من هذه الأعباء النفسية عليها .

و بعد أن تجاوزت عمر العاشرة بَدت تتجاوز محنتها مع أُسرتها ، و بدأت تتفهم المعنى الأنساني للأعذار . فكانت تنظر أليهم فى صمت ، وتعبر عما تشعُر به تجاههم فى هدوء يحترم . فلم تجدها يوم ما ، وقد ضاق صدرها منهم .. أو راحت تشكو مأساتها معهم لزميلة دراسة أو صديقة رغم كثرتهم من حولهَا ومحبتهم لهَا . فاعتادت ساهي أمانة حفظ الأسرار، و لا تعلم إلى الآن . أهي التى أحبت الصبر .. أَم أن الصّبر هو الذي أختارها رفيقة الدرب . ربما هُم كانوا كذلك لزواج أُمها ، وأبيها بعمر صغير ، ونيلهم هذا القسط الوفير من الدلع الزائد من والديهما عليهما لأنهما كانوا أخر العنقود بالنسبة لأسرتيهم . أستوعبت ساهي أنهَا الأخت الكبرى من عُمر صغير ، وعليها أن تحمل هَم أن ينفرط هذا العنقود .. فحملت نفسهَا فوق طاقتها . صارت هذه الأعذار مع الأيام بمثابة الشماعة التى علقت عليهَا تصرفاتهم التى كانت تضايقها . لكنهَا لم تستطيع أَبداً أن تنكر أنهما رغم حنانهم عليهم ، و قيامهم بمسئوليتهم المادية كاملة لهم .. إلا أنهم كانا بالفِعل غير مؤهلين لتحمل مسئوليتها ومسئولية أختها .، و أخيهَا المعنوية ، والتربوية . وبمرور الأيام ، و السنوات صَارت المشاكل أكبر من أحتمالها .. مضاف أليهَا مشاكل أخوتها ليلقوا بها عليها ، و أيضاً تقبلت كل هذا ظناً منها أنه يحدث دون قصد منهم ظل القلق الذي عَانت منه هو ما جَعلهَا دائماً يكاد أحساسها بالأحتواء للأخر مبالغ فيه و لم يستوقفها أَبداً بمراحل الطفولة ، و الشباب أنهَا كانت الأشد أحتياج من الجميع . وحتى عندما زارتها تلك المشاعِر الأنسانية الفطرية ، و طرقت على باب قلبها بإلحاح كان قد فات أوانها . فترى حاجتها للأحتواء وكأنها أرادت أن تأتى خاطفة ، و ليس بمكانها ، و لا بزمانها . لتلقنها الدرس القاسي بأننا بشر ، ولا يصح على الإطلاق أن نكبر على مشاعرنا . فلم تَكُن ساهى تَدرى أن ذلك سوف يحدث لهَا وهى تكمل بدور الأُم الذي ليس بدورها لكن تشجيع أُمها لهَا للعبه كَى لا تقوم بواجبها المفروض

عليهَا كأُم وحدهَا . جَعل ساهى تُجيده بمُنتهى الحنان، مع أختها القاسية و أخيها مراد وتجنب أي خلافات معهم . فقد أتى مراد للدنيا من بعد وفاة أخيها بخمس سنوات

(٦)

بداية الألفية الجديدة

.. كذلك كانت ساهي قبل هذه الكارثة الإنسانية التى وقعت بينها ، وبين أخوتها بوقت قليل .. قد بَدت تَنتبه ، و تحدق ملياً بمرآة الحب العمياء التى كانت تراهم من خلالها طوال السنوات . فبدأت تتضح لديها الرؤية شيء .. فشيء من قبل وفاة والديهم . لكنها كانت تحتفظ بما تلمحه لنفسها ، وتتحفظ كثيراً .. خاصة بعد أن كانت تحاول تنبيه والدتهَا من حين .. لحين . أن أخوتها لم تعد نفوسهم صافية .. لكن أُمها كانت رافضة الأعتراف بهذا .. أو محاولة الأصلاح الجادة . ليشتد حَال الضيق بها من سلبية أُمها المُفرطة فى مثل تلك الأمور ، و للأسف كانت مؤخراً تصطدم بعض الشيء بوالدتها فى كثير من المواقف التى كانت أختهَا تتجنى فيها عليهَا ، و تقف والدتهم موقف المشاهد . تَماماً كموقف أخيهَا مراد الأخير .. حتى لم تتوقف تلك الأخت أمام مرآة الحقيقة ، وتواجه نفسهَا ولو لمرة واحدة بأنهَا أنانية .. سيئة النية . وهكذا ظَلت ساهى تنتابها حالة الضيق من أنانية تصرفات أخوتها ، وألقاء المسئوليات عليهَا . فَلم تعد ساهي كما السابق تَفعل كل مابوسعها لأجلهم عن طيب خَاطِر . بعد أن توقفت أمام انانيتهم المُفرطة .. بمواقف مؤثرة جِداً . فَلم تجد أحد منهم يحمل همها بعد أن كبروا وصارت حالتهم المادية جيدة جِداً . لم تشعُر أنهم حملوا لها أي هم كما حملت هى همهم طوال سنوات العمر . لم تجد منهم أى مرؤة سواء فيما قابلها بالحياة من ظروف مرض .. أو بظروف مادية قاسية تعرضت لها أثناء مشوار حياة طويل أكملت فيه تربية ولديها وحدها .. خاصة أنها لم تعمل من بعد زواجها . على الرغم من أنها عملت بالتدريس لسنوات قليلة من بعد تخرجها من قسم الفلسفة بكُلية الأداب . كانت فى تلك السنوات تعطيهم معظم مرتبها .. بطيب خاطِر .. ليقضوا أوقات

سعيدة مع أصدقائهم بخروجات كثيرة كانوا لا يكتفون فيها بمصروفهم الشخصى . لم تكُن تشعُر وقتها بأنها تؤثرهم على نفسها .. لأن هذا كان حالها الدائم معهم منذ أن كانت طفلة صغيرة . فهى سندهم النفسى ، وملجأهم الأنسانى .. حين يدب الخلاف بينهم وبين والديهم . وكانت سندهم المادي على الرغم من أنهّا كانت مثلهم لهّا مصروف شخصى خاص من والديها .فعاشت فى أضيق الحدود بالمعاش المتواضع لزوجها دكتور الجامعة من بعد وفاته مبكراً . للأسف الشديد صّار أكثر مايؤلمها أنهّا لم تّشعُر منهم بحنان الأخوات .. كما كانت هى بالنسبة لهم طوال سنوات العمر . لتّمُر بهّا الأيام وبأخوتها باردة ..دون مّشاعر وصال الدفء الأخوي . ذاك الدفء الذي ظلت حريصة جِداً على وصاله منذ أن كانت طفلة صغيرة حتى وصل بهم الأمر إلى مفترق الطرقات .ليظل هذا الحّال .. هو حالهم للأسف حتى وفاة والديهم .. وحدوث ماحدث من أختها .. بعد ذلك لتذداد الفجوة بينهم . حتى وصلت العلاقة بينهم إلى حد القطيعة.. دون لحظة وقوف أمام قيمة إنسانية أو صحوة ضمير تجاه أختهم الكبرى . لتعترف أن إخوتها تشبعوا تماماً بالنذالة .. التى ترى ساهى أن هذه الصفة الغير أدمية تتمكن من الكائنات الحية اكلينيكياً ، والموتى أنسانياً . لأنهّا بمُنتهى البساطة تسحب من هذا الكائن أنسانيته دون شعوره بأي تقصير تجاه أقرب الناس أليه . فيصير ذاك الندل مجرد شخص .. أو رقم لكنه ليس أنسان . فهو يوجه بوصلة أحساسه حسب حاجته ، ويبرمج مّشاعره حسب منفعته . وشيء فشيء على مدار السنوات .. ظّن كل من يقترب من ذاك الشّجن الساكن صوتهّا حين كانت تستوطن بالقلب لوعة ما . أو تطل من بين أحداق عينيهّا نظرة تحمل مّذاق مختلف باختلاف طعم الأيام . فتستشعر و أنت تقترب منهّا بنظرة ذات مرار.. تّفر من خلف الدموع التى ربما لاتُرى. ، فتظن أنهّا ربما تهديك ضوء نجوم تتلئلئ تطل خلف نظرة أخرى .. فتعلم أنها لاتريد

سوى أن تهديك تلك النظرة . فلا تملك إلا أن تشهد بأن تلك العيون لم تزل تحمل بقايا قطرات من شهد عسل ظل يبحر بين الأحداق .. وينهل منه جميعهم

بمنزل ساهى

.. تفيق ساهى من غيم الذكريات على صوت أذان الفجر فتقوم لتطفىء التلفزيون .. ثم تذهب إلى الحمام لتتوضأ ، وبعد أن أدت صلاة الفجر . تذهب إلى المطبخ تعد كوب من اللبن الدافىء مع اليانسون علها تستطيع النوم . ثم تذهب لتفتح باب الشُرفة .. تجلس بها ثم يعاود قلبها تساؤلاته ، وهى ترتشف اللبن باليانسون . لماذا يمسح البعض منا ، و بمُنتهي الأصرار خريطة المكان ، ليتلاشى المكان مع الزمان نهائياً من قافلة ترحال الشعور ، وهم قابعين بمنازل الألم بلا ندم . لكن كُل هذا ربما لا يَمنع أبداً من أن نتمهل قليلاً وننظُر إلي مرآة حقيقتنا . علها تُفلح أن تُضمد بعض من جروح .. لُندرك أننا الذين تَغيرنا و أن الزمان برىء . فمهما حَاولنا تبرئة أنفسنا سيظل المكان شاهد علينا ، ليؤكد أن الزمان لم يتغير . فنُحن الذين نُؤثر في الزمن ، وبالتالي هو والآخر يُؤثر فينا .. فتتغير في عيوننا نظرة مودتنا للمكان ، وشعورنا به .، وربما نعتبره غير موجود بالرغم من تجلى حضوره مهما طال الغياب . صباحاً .. تصحُو ساهى من نومهَا قلقة على مراد .. فتفكر فى الأتصال به . ثم تستبعد الفِكرة بهذا الوقت من الصباح. ، وتؤجلها للمساء . تحاول أن تُمارس حياتها بشكل عادى .. فتتصل بزوجات اولادها للأطمئنان عليهم . ثم يَدق جرس التليفون .. يأتيهَا صوت مراد ضعيف .. منكسر فينكسر قلبهَا عليه أكثر ، و أكثر ثم يقول .. بجد شُكراً على كل حاجة . ترد بصَوت هادىء .. ياريتني أقدر أساعدك بشيء انتى طول عُمرك مقدمة لنا كل شيء تَبتسم بسمة شجية .. وتقول فى هدوء أكيد مفيش بين الأخوات شُكر . طلبى الوحيد أنك ماتوجعنيش فيك تمت

رحلة إلى إسطنبول

دينا أبو الوفا

ها هي تجلس في بهو الفندق الفاخر، في انتظار السيارة الليموزين التى ستقلها إلى المطار في غضون ساعة من الآن ... تجلس ساكنة تتطلع إلى النزلاء هنا وهناك، منهم من يقف أمام الريسبشن، لينتهى من إجراءات الخروج منه و منهم من يكمل إجراءات النزول به وآخرون مثلها جالسون على تلك الآرائك الجلدية الفخمة ذات اللون البني الداكن و أخريات من القطيفة بلون الكافيه.

جلسوا يحتسون الشاى والقهوة التركي وعصائر الفاكهة الطازجة الموضوعة أمامهم على طاولات رخامية رائعة، يخترق خلفيتها البنية عروق عاجية اللون، ترتكز على قاعدات نحاسية براقة لتكتمل الصورة فتصبح الآناقة عنواناً للمكان... وفى الخلفية يعزف موسيقىٌ ما، على بيانو أبيض ضخم، ألحان جاز هادئة ، لتختلط بأصوات جميع من فى البهو ، الذى صار مكتظاً بأناس من مختلف الجنسيات، عرب و روس و أتراك و غيرهم من الأوروبيين بينما تغطى الأرضيات الرخامية ذات اللون العاجي الكافيه حقائب مبعثرة بجانبهم.

تطل بعينيها بين الحين والآخر بإتجاه طاولة زجاجية مرتفعة فى منتصف أحد أجزاء البهو ، يعلوها فازات كريستال بارتفاعات متفاوتة ممتلئة بوردة الكريسماس الحمراء الشهيرة المعروفة ببنت القنصل، لطالما أدخلت الورود -خاصة الحمراء- البهجة والسرور إلى قلبها ، إلا هذه المرة .. لم يكن لها ذلك المفعول السحري، فقد فاقت حاجتها الشديدة للعودة لمصر، حد قدرة باقة زهور على إسعادها فى تلك اللحظات كالصائم الذى يترقب ساعته ويتوق لسماع صوت الأذان، قبل الإفطار بدقائق قليلة .. ظلت هي تتطلع إلى عقارب ساعتها و قد أوشك صبرها على النفاد ... ليس لأنها لم تستمتع برحلة العمل التى دامت

لمدة أسبوع كامل، بل لأنها وبرغم شغفها الكبير بعملها ، تظل دوماً متعتها منتقصة فى غياب زوجها وأولادها الثلاث فمنذ الساعات الأولى من وصول "دينا" الى فندق "سويس اوتيل" المطل مباشرة على مضيق البوسفور بمدينة اسطنبول، ودخولها الى حجرتها الفاخرة، وهي تتمنى لو أن زوجها "عمر" واولادها "هنا " و "جنا " و "علي " كانوا بصحبتها ليشاركوها تلك الرحلة ولكن كونها رحلة عمل لم يكن ذلك أمراً ممكناً.

رَن هاتفها ، فوضع نهاية لتوترها- او هكذا ظنت !! - إذ أن المتصل كان سائق الليموزين الذى أخبرها انه بانتظارها خارج أبواب الفندق وعلى الفور أخذت حقائبها الثلاث وصَعدت سريعاً داخل السيارة وانطلقت .... ثم هاتفت أولادها لتخبرهم أنها في طريقها إلى المطار وان طائرتها ستقلع فى خلال ثلاث ساعات "هانت يا حبايب مامي، أنتم وحشتوني أوي أوي ، أوعوا تناموا قبل ما اجى، استنونى عشان انا جايبالكم حاجات تحفه ..... لا اله الا الله " "محمد رسول الله .. يا مامى" ثم اطلت بعينيها من النافذة ، لتودع اسطنبول التى لم تر منها شيئاً تقريباً سوى بهو الفندق والمطعم الذى تناولت فيه فطورها وغدائها كل يوم مع زملاء العمل وحجرتها وقاعة الاجتماعات وبضعة مولات تجولت داخلهم على عجالة ، فلم يكن هناك متسع من وقت الفراغ ، ليتيح لها انتقاء الهدايا لزوجها وأولادها وأقاربها على رواق !!!! جميلة هى اسطنبول ... هكذا رأتها فبالرغم من الخلافات السياسية والتوتر الواضح بين مصر وتركيا الا انها كانت قادرة على الفصل بين الحكومات وكيف تدار لعبة السياسة وبين الشعوب والبلدان التي عادة ما تقع أسيرة تلك الألعاب بلا ذنب ... ولهذا رأتها بقلبها جميلة ... جمال مثير للدهشة، لما وجدته فيها من تاريخ وحضارة عريقة تشتم رائحتها فى نفحات الهواء ومن تحضر وتمدين واضحين فى كل شيء .

نظرت عبر النافذة لتلمس ذلك النسيج العجيب لتلك الدولة العثمانية قديماً!!! هناك يقع قصر "دولما باهشا" الذى قرأت عنه الكثير وزارته مع زوجها منذ اكثر من عشرة أعوام ، هذا القصر الذى يطل مباشرة على البر الأوروبي من البوسفور ويعد من أروع قصور العالم وأكبرها فى تركيا وأقام فيه آخر ستة سلاطين للدولة العثمانية قبل قدوم أتاتورك لينهى تلك الحقبة من التاريخ وامام ذلك القصر التاريخي، تجد بروجاً قد شيدت بطراز حضارى انيق فيبدوان وكأنهما يتبارزان فيما بينهما ،من منهما الأبهى والاجمل..... وهناك تسير امرأة منتقبة وفى مقابلها امرأة بفستان قصير تحتضن رجلاً وبينهما ثالثة مرتدية الحجاب التقليدى للأتراك - ذو الرأس المنتفخة من الخلف ....ولا تجد إحداهن تنتقد الأخرى أو تنظر إليها على أنها كائن غريب أتى من الفضاء الخارجي ..... حالة فريدة من تقبل الآخر بكل ما يحمله من اختلافات ظاهرية أو جوهرية.

وهناك تمر امام ارقى الأحياء السكنية والتى شيدت بناياتها بطراز حديث ، فتلمّح أمامها أبهظ السيارات مصطفة واحدة تلو الاخرى، فتجزم أنك بالفعل فى أوروبا ثم لا تلبث بعد دقائق معدودة و على بعد كيلومترات قليلة ، لتفاجئك المناطق البسيطة ذات البنايات القديمة المتهالكة وقد تراكمت النفايات أمامها والأطفال يلعبون حولها !!! حتى انها لمحت هذا التناقض اكثر من مرة بينما كانت تتناول العشاء فى المطاعم الشهيرة، حيث احتسى بعض المسلمون منهم الخمر بشكل عادي، بينما امتنع البعض الآخر عن تناوله، فكانت كعادتها تشاهد فقط، دون ان تعلق بكلمة واحدة، فلم تكن من عاداتها يوماً انتقاد الآخرين أو إصدار الأحكام ... بل كانت دائماً ممن يرددون "دع الخلق للخالق" ليقينها التام انها هي شخصياً غير معصومة من الخطأ ... فمن تكون هي لتحكم على بشر مثلها !!!! استعادها من خواطرها وافكارها، شعورها المفاجئ بأنه قد مر وقت طويل منذ ركبت السيارة ومع ذلك لم تصل إلى المطار بعد ... نظرت الى ساعتها فوجدت ان ساعة

ونصف قد مرت .... كيف هذا و هى التى لم تتجاوز نصف الساعة للوصول الى الفندق من المطار حين وصلت الى اسطنبول باقى من الزمن ساعة ونصف على إقلاع الطائرة .... " يا ترى هلحق!؟

هذه الخاطرة اربكتها فجأة .... " لو موصلتش فى الميعاد وفوت الطيارة هعمل ايه ، هبات فين ، هسافر بكره إزاى ..... إزاى مرجعش لولادي النهارده ، انا وعدتهم إني راجعه الليلة" كل تلك الأسئلة جعلتها ترتعد خوفاً فاعتدلت في مقعدها وحدثت السائق بالانجليزية بصوت ملأه التوتر والقلق والحيرة " بعد إذنك ، هو لسه كتير على المطار... الطيارة هتقوم كمان ساعة ونص وخايفه ملحقهاش .... أرجوك مفيش طريق اقصر... انا لما وصلت اسطنبول ، الطريق اخد نص ساعة بس للاوتيل" فأجاب " أدامنا نص ساعة كمان ، انا اسف بس ده وقت الذروة والشوارع كلها مقفولة ... مفيش طريق تانى ... ممكن تلحقي"

لم تجد بد من الاستسلام لنصيبها، فليس بإمكانها شىء إلا الدعاء: "يا رب ... يسرها من عندك يا رب ... يا رب ... افرجها من عندك ... يا رب عايزه أرجع مصر واشوف ولادى .. مش هقدر أبات ليلة كمان ... وحياة حبيبك النبى ... أوصل وأسافر"

ظلت سراً تردد تلك العبارات حتى توقفت السيارة امام صالة السفر الدولية، فخرجت "دينا" منها مسرعة ووضعت حقائبها على "تروللي" بمساعدة احد الشيالة الأتراك الذي ركض معها على الرصيف متوجهاً الى باب الدخول وباللغة التركية أعلم الموظفين عند نقطة التفتيش ان طائرتها ستقلع فى غضون ساعة ومن ثم فعليها تخطى دورها فى الطابور الطويل لتلحق بها ...وتفهم العاملون والمسافرون فمرت وأسرعت بالتوجه الى الكاونترلتسلم حقائبها وتستلم "بوردنج باس" فما كان من الموظفة التركية الجالسة هناك الا ان تحدثت اليها بعجرفة

وتعالٍ شديدين " انت متاخرة اوى .. مش هينفع تمري ... ايه اللى اخرك كده ... مش عارفه ميعاد طيارتك"

ولأن "دينا" كانت دوماً احدى تلك الشخصيات التى تبغض وبشدة الكبروالتعالي وان يوجه اليها احدهم الحديث بهذا الأسلوب المستفز ، أجابت بنفس التعالى والعجرفة غير مبالية بالعواقب:

"انا اتحركت بدرى جدا من الأوتيل والطريق اخد ساعتين وربع، المشكلة الحقيقة فى زحمة اسطنبول مش فيه خالص"

فاخرست الموظفة التى شعرت بالحرج، فأخذت منها الباسبور والتذكرة لتكمل الإجراءات ثم ناولتها "بوردينج باس" على مضض ....وهنا تنفست "دينا" الصعداء، ففى يدها ما يضمن لها ان الطيارة لن تقلع بدونها، فأحست أن بامكانها الآن التمهل قليلاً لتلتقط انفاسها وتعود ضربات قلبها لتنتظم بعدما كانت تدق كطبول الحرب .... توجهت الى بوابة رقم ٥١ ...ركبت الأتوبيس المتجه إلى الطائرة .... صعدت السلم حاملة حقيبة يدها وحقيبة اللابتوب ..... الهواء البارد يكاد يخترق سترتها المبطنة ..... وضعت حقيبتها فى كابينة الحقائب وجلست اخيراً على مقعدها .... اغلقت عيناها لبضع دقائق ثم التقطت هاتفها من داخل حقيبة يدها وبعثت برسالة لعائلتها "ان شاء الله جايه فى ميعادى ....الطيارة خلاص هتطير.. استنونى"

اقلعت الطائرة ، حاولت "دينا" بعدها ان تنل قسطاً من الراحة فلم تستطع ... فأمسكت بهاتفها وراحت تنظرلبعض الصور التى كانت قد التقطتها مع زملائها العرب خلال اجتماعات العمل ..... فَعَلَت وجهها ابتسامة حين تذكرت بعض المشاهد التى جمعت بينهم.

تذكرت "عمر" الشاب العراقي ذا البشرة السمراء والروح المرحة ... عمر الذى لم يكف على مدى ستة ايام من إطلاق النكات الخفيفه التى أضحكت الجميع .... تذكرت "جدعنته"حين تمكن منها الصداع النصفى فى نهار احد الأيام ، فاستأذن من الاجتماع وعاد الى حجرته مسرعاً ليجلب لها مسكناً !!! تذكرت ليلتها انها نزلت الى البهو لتناول العشاء فى مطعم بقرب الفندق فوجدت " محمد " الجزائرى - ذو القامة الطويلة والبشرة البيضاء والعينان الزرقاوان و "امين" التونسي - هادىء الطباع قليل الكلام - فى انتظارها ليصطحباها الى هناك حتى لا تسيروحدها وهى متعبة ... كم أسرها حينها ذلك التصرف الرجولى وسعدت به .... ليس من منطلق كونها امرأة ساعدها زملاؤها ، بل قرأت هى فى موقفهم ما هو أجل وأقيم من ذلك بكثير.... رأت عروبة تتحقق بين الشعوب لم ترها بين الحكام والحكومات العربية تذكرت جلستهم معاً حول المائدة ، هى و محمد وأمين وعمر ومعهم "شريف " المصرى" ابن البلد ابو دم خفيف" و"احمد" بلكنته اللبنانية الساحرة والتى يتخللها بين الحين والآخر بعض العبارات الفرنسية التى لا تجد من يفهمها جيداً سوى محمد الجزائرى وامين التونسي ... تذكرت روح الالفة والمحبة والوئام التى جمعت بينهم حينها .... إطلاق النكات والضحكات لم يتوقف على مدى ساعتين او ربما اكثر.... تكلموا فى كل شىء الا السياسة والحكومات ... لم يكن ذلك بسبب اتفاق مسبق فيما بينهم ... إنما شعرت "دينا" ان ما يجول بخاطرها جال بخاطرهم هم أيضاً وهو ان الشعوب العربية وما تكنه بقلوبها ، لبعضها البعض لا يتواءم كثيراً مع سياسات الحكومات والمصالح والحسابات الاخرى ... قبل ان تتمكن من حبسها ، انطلقت قهقهة صغيرة من "دينا" داخل الطائرة حين استرجعت تفاصيل ذلك الحوار حول اسماء الفاكهة فى البلدان العربيه المختلفة " يا شباب احنا فى مصر بنسميه برقوق " فرد محمد "واحنا بنسميه بالجزائر .. عوينه" واستطرد امين " ونحن نقولوا عليه عوينه كمان "

وقال احمد "ونِحْنَ ما نحكى نفس الشى . نحن نقول عليه ...خوخ " فقاطعته "دينا" بضحكة بنت مصرية شقية "لا لا يا احمد ... هتلخبطنى ليه ... الخوخ يا ابنى فاكهه تانيه خالص " فقاطعها عمر " انتظرى "دينا" ... لسه ما سمعتى و ايش نقول عليه بالعراق ... نقول عليه عنجاص" "هههههههههه عنجاص ... مين عنجاص ده !!!!" وانهارت ضاحكة "ضحكتينا يا "دينا" ... خفة دم المصرية فعلا" "طب بتسموا البطيخ ايه ... اتحفونى" "بنقولوا عليه دلاعه بتونس " " ايه نفس الشىء بالجزائر " "فى العراق نقول رجه" " رجه ... وماله !!!! ... طب فى لبنان يا احمد " "متلكن نحن كمان بنسميه بطيخ بلُبنان" مازحتهم "دينا" قائلة "يعنى يا ربى مش عارفين حتى نتفق كلنا كعرب على اسماء الفاكهة ونوحد كلمتنا .... مش كفاية مش عارفين نتفق سياسياً ونتوحد" هز أرجاء المكان صوت ضحكاتهم اثر تلك الدعابة، مما جعل زملائهم الأتراك والإسرائيلية يلتفتون اليهم ..... كانوا قد تناسوا جميعاً وجود تلك الزميلة القادمة من فلسطين المحتلة والتى يطلق عليها كذباً وزوراً "اسرائيل" فقد تفادوا جميعاً منذ اللحظات الاولى للاجتماع، الاختلاط معها او حتى الاحتكاك بها الا فى أضيق الحدود من باب مراعاة إتيكيت العمل لا اكثر .... عدا ذلك ، لا تتذكر "دينا" ان أحداً منهم صافحها او جلس بجانبها او أدار حواراً معها زاد عن دقيقة او دقيقتان كانت لهم "عدو مبين" ... لم يبرموا معاً اتفاقاً معلناً لتلك القطيعة الجماعية ولكنها كانت قطيعة تحركها مشاهد الاحتلال والاستيطان، مشاهد قتل الأطفال الأبرياء بدم بارد ، مشاهد الاعتداء السفيه على النساء و العجائز، مشاهد اذلال وتعذيب لرجال صمدوا بحجارة امام قذائف جيش خسيس .... تذكرت "دينا" كم حاولت تلك المرأة ، ان تعكر صفوهم كثيراً بعبارات مستفزه ، كانت ترددها على بعض الحاضرين وترفع بين الحين والآخر صوتها ليصل الى آذانهم وهم على بعد بضع مقاعد منها ، لعلها تستثير غضبهم فتخرج الأمور عن السيطرة فتصبح المسكينة مضطهدة

مستهدفة من العرب الظلمة !!!!! اليست تلك سياسة اسرائيل الخارجية " ضربنى وبكى ... سبقنى واشتكى".

جلست مرة على العشاء ، ببشرتها الباهتة وعيناها الساهيتان، وشعرها الاسود الموج ليصدر منها صوت أشبه بفحيح الأفعى "احنا فى اسرائيل بنسعى للسلام ونتمناه من قلوبنا ، لكن الفلسطينين مش عايزين سلام وبيحاربونا وبنضطر ندافع عن نفسنا ... هنعمل ايه !!!!!" وفى احد المواقف ، وجهت حديثها مباشرة لها قائلة " انت عارفه ان اسمك منتشر أوي فى اسرائيل ... ستات اسرائيليات كتير اسمهم "دينا "

فاستشاطت دينا غضباً لما تُلَمّح له تلك الأفعى الا انها تماسكت واجابت ببرود شديد وابتسامة صفراء يملأها التحدى والسخرية:

" انا اسمى على اسم بِنْت سيدنا يعقوب الوحيدة واخت سيدنا يوسف عليهما السلام ..... يعنى إسمى إسم ديني ،لأننا بنؤمن بكل الرسل ونعتز بيهم ولا صلة له بجنسية معينة عزيزتى .... تعرفى الأنبياء دول ولا مسمعتيش عنهم"

ومع انزلاق عجلات الطائرة على ممر مطار القاهرة الدولى ، افاقت "دينا" من شرودها الطويل، انتظرت فى لهفة كباقى الركاب توقف الطائرة تماماً وما ان انطفأت علامة ربط الحزام حتى تحررت منه والتقطت حقيبتها من الكابينة العلوية وتحركت بفرحة الأطفال نحو الباب الذى انفتح ليملأ رئتاها هواء مصر ..... يااااااه هواء مصر الذى لا يرد اليها الروح هواء على سطح الكرة الارضيّة سواه..... هواء وطن حر....

كريمة

دينا أبو الوفا

داخل غرفتها هادئة الأجواء، خافتة الأضواء، استلقت "كريمة" في فراشها، وقد أمسكت بمصحف كبير بين يديها، تتلو إحدى أكثر السور المحببة إلى قلبها..... "سورة يوسف".

وكان السر وراء ولعها الشديد بتلك السورة المكّيّة، والتي عرفت بـ"أحسن القصص"، هو أنها السورة الوحيدة التي بدأت بحلم وانتهت بتحقيق ذلك الحلم، وكأن الله يخبرنا بها أن نتمسك بأحلامنا، لأنه وحده القادر على تحقيقها. وقد تناولت السورة بشكلٍ منفردٍ قصة النّبي يوسف بن يعقوب عليهما السّلام، وسردت بعبقرية إلهية ما لاقاه في حياته من مواقف وأحداث ومصائب، فتترك من يقرؤون آياتها المائة وإحدى عشرة- بمن فيهم هي- وقد استقوا من بينها العديد من الدّروس والحكم والعبر.... أهمها الاستعانة بالله عند الشّدائد والصبر على البلاء والإيمان بالدّعاء وبقدرته، وأن الله سبحانه وتعالى يستجيب للعبد، وأن فرجه آت ولو بعد حين، واليقين أيضاً بأنّ الحقّ غالب مهما طال الأمر.

كل تلك الرسائل كانت تبعث في نفسها الشعور بالتفاؤل والأمل، برغم ما تلقته ولا تزال تتلقاه من صفعات قاسية على يد الأيام.

كانت هذه هي ليلة الثالث عشر من شهر رمضان المعظم، ولهذا اختلت "كريمة" بنفسها كعادتها في ليالي الشهر الكريم، بعد أن تناولت وجبة الإفطار مع عائلتها، داخل حجرتها، حيث كانت تؤدى بانتظام يومياً صلاة المغرب ومن بعدها صلاة العشاء، ثم تتبعهما بصلاة التراويح، ولأنها كانت تعاني آلاماً مزمنة في مفاصل ركبتيها منذ عدة سنوات، فقد كانت تقوم بالسجود وهي جالسة

على مقعد، فالنزول بركبتيها إلى الأرض كان أمراً شاقاً عليها، خصوصاً مع هذا العدد الجم من السجدات.. وفور انتهائها من صلاة التراويح وركعاته الثمانية، أوت إلى فراشها لتتابع قراءة القرآن، لعلها تتمكن من ختمه مرتين هذا العام مثلما تفعل كل عام.... مرة لها ومرة على روح والدها الأستاذ "عبد الرحيم"، الذي توفى فجأة أثناء نومه، وهي لم تكن قد بلغت بعد الخامسة من عمرها.. ربما لا تتذكر من ملامحه شيئاً، ولا تعاودها أية ذكريات معه، إلا أنها واظبت على تلك العادة منذ أن بدأتها وهي في العشرين من عمرها.

لم تكن تعلم علماً أكيدا، حكم الدين في ذلك، وما إذا كان ثواب خاتمة القرآن الثانية سيكون من نصيب أبيها أم لا، لكنها رغم ذلك لم تنقطع عنها.. وكانت تكثر من الدعاء له كلما سجدت لله، فهو بالأخير والدها وله عليها حق الدعاء بالرحمة والمغفرة حتى لا ينقطع عمله.. فقد كان يتردد في أذهانها دوماً قول رسول الله الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه:

"إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له".

لم تكن فقط تحصر الدعاء في تلك الليالي المباركة، إنما كانت تدعو له كلما ذُكِرَ اسمه أو ترددت سيرته أمامها في مجلس ما يضم العائلة والأقرباء.

وبعد وفاة والدها لم يبق لها سوى أخيها "حسن" الذي كان يكبرها بسبعة أعوام ووالدتها الأستاذة "درية" مدرسة اللغة العربية، والتي اتسمت بالصرامة والحزم والجدية الشديدة، كما لو كانت لواء جيش في قلب معركة!!!! فندرت بينهما لحظات الحنان والألفة والمودة والصداقة التي عادة ما تجمع ما بين أي أم وابنتها.

ربما أوجع "كريمة" حينذاك ذلك الجمود، ولَم تتفهمه فازدادت الفجوة بينهما اتساعاً يوماً بعد يوم، فقد فقدت والدها وتقبلت ذلك، فهل كان لزاماً عليها أن تتقبل غياب صورة الأم عنها أيضا !؟ "بالطبع لا"...

هكذا كان ردها كلما راودها هذا السؤال الملح .

إلا أنها حين كبرت ونضجت وأعادت التفكير ملياً في الأمر، التمست لوالدتها العذر، وتفهمت الأسباب وراء تلك القسوة السطحية.... فغياب أب فجأة وتولى أم مسئولية تربية طفلين في سن صغيرة، ومواجهة الحياة وحدها بكل ما تحمله في طياتها من صعاب وتحديات ليس بالأمر الهين.. ربما تطلب هذا منها أن تكشر عن أنيابها تحسبًا لما قد تلقيه الحياة في طريقها، فغفلت عن حقيقة كونها أماً وتناست واجبات هذا الدور المحوري في حياة الأبناء، ربما في محاولة لحمايتهم ليس أكثر..

ولولا وجود أخوها "حسن" بجانبها، عبر السنوات، لما تحملت هذا الجفاء من والدتها، فقد لعب دوراً مختلفاً في حياتها.... كان حنانه المفرط وحبه الشديد اللذان غمرها بهما، واحتوائه المتواصل لها ووقوفه بجانبها في كل مراحل حياتها وصداقته العميقة لها، خير عِوَض.

كان "حسن" ملاذها ومأواها عند كل لحظة ضيق أو يأس تفقدها الشعور بالأمان، فحفظ لها توازنها النفسي، بالرغم من كثرة التخبطات التي واجهتها والضربات التي تلقتها على مدى سنوات عمرها الأربعين.. فصار أقرب إليها من أي شخص آخر على وجه الأرض، وكان لها الأخ والأب والابن والصديق.

ربما كانت تلك المكانة الرفيعة، سبباً أساسياً وراء المخاوف التي سكنت قلبها سكناً دائماً من أن تفقده يوماً ما، فهو لها كل شيء، فكيف يتركها ويرحل؟!!!! وكيف أن السرطان، ذلك المرض اللعين، قد اختاره هو دوناً عن سائر البشر، ليصيبه في الكبد منذ نصف عام تقريباً، ليبدأ منذ ذلك الحين

صراعاً شرساً معه، في رحلة علاج مجهولة النهاية، وكان وقتها في بدايات النصف الثاني من العقد الخامس.

وبينما هي تقرأ سورة يس واقتربت عقارب الساعة من العاشرة مساء، شعرت بالنعاس الشديد، فأغمضت عينيها، وانزلقت في فراشها منهكة القوى بسبب الأعمال المنزلية الصباحية التي أنجزتها على عجلة كي تتمكن من اصطحاب أخيها إلى المستشفى لإجراء بعض الفحوصات الجديدة ثم عودتها إلى البيت لتقف لساعات طويلة داخل المطبخ لتحضر سفرة الإفطار الفاخرة التي تُلزمها بها عائلتها في رمضان، فالأصناف العادية لا تستهويهم.

حاولت جاهدة أن تترك فراشها، لتبلِّغ عائلتها، التي جلست في غرفة المعيشة تتابع مسلسلات رمضان، أنها ستخلد إلى النوم، ليأخذوا احتياطاتهم في إحداث أي ضوضاء، فنومها كان دوماً خفيفاً وتؤرقها "دبة النملة". لكنها لم تجد القوة لذلك، ولذا فقد بعثت برسالة على الواتساب لزوجها وأولادها:

- "أنا هلكانة ونعسانة أوي، مش قادرة افتح عيني ولا أطلع أكلمكم حتى، هنام ساعة كده عشان أصحى أكمل قراية قرآن لحد ما ييجي ميعاد السحور، لو سمحتم محدش يدخل عليه وحاولوا تهدوا صوتكم شوية".

ولكن يبدو أن الرسالة لم تكن واضحة بالقدر الكافي، فبعد مرور ما يقرب من ربع ساعة، دخل عليها زوجها "أمجد" وأخذ يتجول داخل الحجرة مرتدياً خُفِه، فأصدرت الأرضية الخشبية صريراً مستفزا مع كل خطوة من خطواته الثقيلة، وفتح الدولاب وظل يبحث داخله عن شيء ما، مستعيناً بضوء هاتفه الخلوي، فسمعت أصوات مقتنياته الملقاة على الرف، وهو يزيحها بيده هنا وهناك، أدركت بعد ذلك من "الشخللة" الصادرة أنه كان يبحث عن مفاتيحه.. ثم اتجه إلى الحمام وأدار مفتاح الضوء تاركا الباب مفتوحاً وراءه،

فأضاءت الغرفة التي كانت غارقة في الظلمة منذ دقائق قليلة، وسمعت صوت الماء ينساب داخل الحوض فأدركت أنه يغسل وجهه أو ربما يتوضأ.

"-والله حرام عليك يا أمجد.... صحيتني من النوم".

-"وإنتي إيه اللي صحاكي!؟".

-"إيه اللي صحاني!!!! بتسأل إيه اللي صحاني !؟ صحاني دخولك الأوضة والدوشة اللي إنت عملتها".

-"دوشة إيه؟... أنا يا دوب دخلت أدور على حاجة في الدولاب.... إنتي اللي نومك خفيف... نامي تاني يا ستي، مجراش حاجة".

-"تدور على حاجة.... مش قادر تصبر ساعة واحدة لحد ما أصحى.. وبعدين أنام تاني إزاي، هي سهلة أوى كده!؟".

-"إنتي متعصبة ليه؟... أما إنتي غريبة والله... جرى إيه يعني!؟".

وصفع الباب خلفه تاركاً "كريمة" وهي تشعر وكأن الصفعة كانت على وجهها فأفاقتها من غفوتها كلياً.

حاولت جاهدة كبت مشاعر الغضب والاستياء التي اجتاحتها، والتزام الصمت حتى تمر الليلة بسلام لكنها فشلت.. خرجت من حجرتها حانقة، تغلي كبركان "كراكاتوا"، ولَم تمر سوى لحظات حتى انفجر وطالت حممه الجميع، زوجها وابنتيها التوأم البالغتين من العمر الثانية عشرة.. ربما لم تكن تقصد ابنتيها بالتحديد، فصغر سنهما النسبي لا يسمح بلوم أو عتاب، بالإضافة إلى أنهما لم يرتكبا أي خطأ.. لكن منذ متى والبراكين تختار مسار الحمم البركانية... فهي حين تنفجر تطيح بالأخضر واليابس!!!

وبدأت نوبة من الصراخ الهستيري:

-"هو في إيه؟... هو محدش حاسس بيه ليه ولا حد شايف تعبي ليه؟... مستكترين عليه ساعة ارتاح فيها، ولا هو عشان اخترت إني التزم الصمت

ومشتكيش ولا أفتح بقى طول الأربعتاشر سنة اللي فاتوا يبقى خلاص... يبقى عادي... أبقى جبل مبيتهدش ولا جمل بينخ، ولا يمكن عشان من كترما تظاهرت قدامكم إني كويسة ولبست مية وش عشان أداري اللي جوايه، صدقتم إني كويسة، عجبتكم فكرة إني كويسة".

وانخرطت في نوبة من البكاء.. وقفوا جميعاً في حالة من الذهول، من أين أتت تلك الثورة!؟ كيف!؟ لماذا!؟

فالأمر لا يستحق كل هذا، بل لا يستحق شيئا... وربما هذا ما زاد من غضبها، أنها قرأت في أعينهم أن الأمر لا يستحق!!!

أهذا ما آلِ إليه أمرها في نهاية المطاف؟، ألتلك الدرجة تنازلت عن "كريمة" عبر تلك السنوات الماضية، حتى صارت غير مهمة، كائن بلا حقوق لدرجة أن يرى الجميع أبسط احتياجاتها ترف لا داعي له، لتصبح راحتها اليوم أمرا ثانويا!!!!

وأمام ذهولهم هذا، لامت نفسها بشدة، ليس لأنها ثارت في وجههم، بل لأن ثورتها تأخرت كثيراً، كثيراً جداً.. وتذكرت عبارة قد سمعتها من أحد الأطباء النفسيين المشهورين بمصروهو يفسر ثورة بعض الناس فجأة على أمر طفيف لا يستحق.. قال فيها: "دي مش دبانة دي قلوب مليانة".

نعم نعم.... هذا هو التفسير، فلم تكن تلك الثورة العارمة التي اجتاحتها نتاج هذا الموقف فقط. فقد ظلت طوال سنوات زواجها الأربع عشرة، رغم آلاف اللحظات الخانقة التي مرت عليها، تتحلى بالصبروتلتزم الصمت... كيف تمكنت من ذلك !؟ سؤال لم تجد له يوماً إجابة.. فمنذ بدايات زواجها التقليدي بأمجد، الطبيب الذي سبقها في التخرج من كلية الطب بعامين بتقدير عام جيد، بينما تخرجت هي بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف- أدركت أنها اقترفت خطأ جسيماً بزواجها منه وتجاهلت حقيقة كانت واضحة في فترة

الخطوبة، كقرص الشمس في منتصف يوم صيفي، وهي أنهما نقيضان في كل شيء.. في شخصيتيهما، في منهجيهما في الحياة، في تطلعاتهما، في أحلامهما، في هواياتهما.. في كل شيء.. إلا أن "كريمة" أتمت الزيجة لأمرين: أولهما، هو الرضوخ لضغوط والدتها، التي أصرت على زواج ابنتها بعد تخرجها مباشرة.. كانت تعلم الأستاذة "درية" علم اليقين أن ابنتها ومنذ نعومة أظافرها، فتاة شديدة الطموح، لا تتغذى روحها على شيء بقدر ما تتغذى على النجاح وتصل بطموحاتها حد الفضاء، ولو تركت "كريمة" لأحلامها لوجدتها على متن مكوك فضاء، متجهة إلى المريخ لو سكنه النجاح هناك!!!!

وثانيهما أن بحسابات الورقة والقلم فإن أمجد كان يعد عريسا لا بأس به على الإطلاق، فهو طبيب، من عائلة كبيرة، وسيم، حسن المظهر، مرح، متفائل، مشرق على الحياة.... فقررت ألا تتوقف طويلاً أمام تلك الاختلافات، وأكدت لنفسها بثقة في غير محلها، أنها ستنصهر مع الوقت.... ولكن هيهات فالاختلافات كانت أقوى من معدن المولبدينيت نفسه !!!!

هي تسكن المشرق وهو يسكن المغرب... هي طموحة، تتطلع دوماً إلى الأعلى، وهو شخص مكبوح، لا يكترث كثيراً بما يمكن أن يصل إليه، فالوصول إلى الغايات يحتاج إلى مجهود، وهو ليس على استعداد أن يبذل أقل القليل منه... هي تنظر للحياة بجدية وواقعية شديدة، وهو ينظر إليها طوال الوقت من خلال نظارة وردية.. هي من يخطط ويدبر ويرسم الخطوط العريضة للمستقبل، وهو من يعيش "اليوم بيومه"، ولا يلقى للغد بالاً، فلا شيء يستحق عناء التفكير ومشقة التمعن!!!

وجدت نفسها دون أن تعي تجلس خلف عجلة القيادة، تقود عائلة كاملة، وتخترق بهم طرق الحياة بمنحنياتها وانحداراتها، فتتفادى هي المطبات الوعرة كلما أمكن، وتنطلق مسرعة كلما سنحت لها الفرصة بإشارة خضراء،

وتتوقف أحيانا عند الإشارات الحمراء التي تجبرها الأقدار عليها، أما هو فقد اكتفى بأن يجلس مسترخياً في المقعد المجاور لها، مستمتعاً بموسيقى عذبة تلعب من حوله، لا يسمعها سواه، ينظر عبر النافذة بين الحين والآخر ليتحقق من موقعهم على سطح الأرض، ليس لأنه يكترث، بل من باب "العلم بالشيء".

كان يبدو للجميع وليس "كريمة" فقط، وكأنه انعزل وحده داخل حجرة زجاجية مصنفرة، لا يرى ولا يسمع من خلالها شيئاً من العالم الخارجي المجنون!! فعالمه الخاص أهدأ وأروع وأجمل بكثير.. اكتفى بالعيش داخل "كومفورت زون" خاصة به، والاحتفاء بلحظات المرح في الحياة، فلم ينقطع عن القيام بكل ما يسعده ويدخل البهجة إلى قلبه.... كشراء سيارة جديدة، أو السفر لقضاء وقت ظريف مع أصدقائه على شاطئ ما، أو الخروج معهم لتناول الغداء أو العشاء في مطعم ما، أو الذهاب للتبضع لشراء ما ينقصه.

لم يبال كثيراً بالتكاليف التي يتكبدها، فقد سخَّر جزءا من دخله المقبول لشراء كل احتياجات البيت من مأكل ومشرب، وجزءا آخر لمصاريف المدارس السنوية، عدا ذلك فهو له بالكامل.

لا تتذكر أنه سألها يوماً على مدى أربعة عشر عاماً من الزواج، إن كانت تحتاج إلى شيء، إن كان لديها ملابس كافية، أو إن كانت بحاجة لملابس جديدة....لا تتذكر أنه تكفل بها يوماً كما يتكفل أي زوج بزوجته.

كانت إحدى تلك النساء النادرات اللاتي يملكن قدراً كبيراً من عزة النفس، فكانت تأبى أن تطلب منه شيئا أو تمد يدها إليه... فما لا يأتي عن طيب خاطر دون سؤال، فلا حاجة لها به.. فتكفلت هي بكل احتياجاتها: من ملابس، خروجات، سفر، مصاريف علاج إن لزم الأمر، حتى حين كان دخلها بسيطاً في أوائل مشوارها المهني، وكان دخله يفوقها بكثير، لم تجده سنداً لها، وبالرغم من كل ذلك، لم تفسر تلك التصرفات على أنها بخلاً منه، لا لا....

ولكنها رأت شخصاً يمتلك من الأنانية قدراً كبيراً، ويتمحور حول ذاته ولا يرى في الكون إلاه.... رأت رجلاً قد حدد أولياته منذ اليوم الأول، ولَم تكن هي ضمن تلك الأولويات.

لم تعف نفسها من المسئولية واعترفت أمام نفسها مراراً وتكراراً أنها أسهمت بشكل أو بآخر في بلورة حياتها معه على هذا النحو.. فربما لو حاربت منذ البدايات، لضم اسمها لقائمة أولوياته، وعافرت لوضع نفسها في المكانة التي تستحقها، لاختلفت حياتها اختلافاً جذرياً.. لكنها تنازلت عن حقوقها كلياً، وكانت تلك الحقيقة كفيلة بأن تغرس داخلها الشعور بالانكسار، ولكن ما كسرها حقاً أنه لم يع، ولَم يلحظ أنها تنازلت أساساً !!!!

كم من مرات سمعت فيها تلك العبارة المؤلمة منه: " وإنتي بتعملي إيه أكتر من اللي أي ست تانية بتعمله؟....عادي".

أن تتنازل ويقدر لك أحدهم هذا التنازل، فهذا شيء، ولكن أن تتنازل وتؤخذ جميع تنازلاتك كأمر مسلم به ولا يزن في ميزان الآخرين شيئا، فهذا أمر آخر.

ومرت بينهما السنون واعتادت "كريمة" فكرة أن تعطى بلا مقابل، وأن يأخذ هو منها بلا مردود، ودارت انكسارها داخلها بعيدا عن أعين الناس.. فاتبعت منهجاً قاسياً في حياتها مع "أمجد"، كانت تبتسم ابتسامة عريضة لا تفارقها، بينما لا تود شيئاً سوى البكاء، كانت تضحك ضحكات عالية رنانة، حين لا تحتاج لشيء قدر احتياجها للصراخ.. وكانت تلتزم الصمت حين تكون في أمس الحاجة للبوح، فتغرق وحدها في بحور الشكوى الخرساء.

ولَم يشاركها سرها سوى "حسن" الذي نصحها عدة مرات أن تنفصل عن زوجها طالما أنها بتلك التعاسة، لكنها كانت تطرد الفكرة كلياً.... فسعادة أولادها تأتى في المقام الأول.

-"يا كريمة يا حبيبتي، دي عيشة دي اللي إنتي عايشاها، شوفي أنا عامل إيه لمراتي ومدلعها إزاي، ما هو ماخدكيش من الشارع، ده إنتي دكتورة زيك زيه، ويمكن كمان أشطر منه... إيه الأنانية اللي هو فيها دي،،، لازم يفهم إنك مسئولة منه... مش بس أكل وشرب يا حبيبتي... إنتي كنت برنسيسة في بيت أبوكي... تقومي تطلعي منه عشان تصرفي على نفسك، ليه يعني وإيه اللي يجبرك يا حبيبتي على كده".

-"اللي يجبرني ولادي يا "حسن"، يمكن إنت صح في إني مش سعيدة ولا عمري هكون سعيدة ولا دي الحياة اللي أتمنتها لنفسي.... مش عشان بس الفلوس والماديات... عارف لو دي إمكانياته مكنتش افتح بقى ولا اعترض... دي أرزاق... أنا اللي قاتلني انعدام الطموح والحياة اللي عايشها مع نفسه في ال لالا لاند..... ياما إترجيته يعمل ماجستيرودكتوراه ويفتح لنفسه معمل خاص بيه.... كان رده دايماً أنسى، أتعب نفسي ليه ما مش ناقصنا حاجه إحنا كويسين... هو صح إحنا فعلا مش ناقصنا حاجة بس مش عشان هو مكفي طلباتنا لا عشان إحنا ملناش طلبات عنده.... أنا مكفية نفسي وولادي بالكامل سابلي أنا الدور الأصعب ألعبه واختارلنفسه الدور السهل... سابني أنا أحلم وأخطط وأسعى وأتعب وأحقق كل أحلامي... يمكن كمان حققت له أحلامه اللي حلمها من سكات عشان مش مستعد يتعب.... اكتفى بالفرجة...

لكن برغم كل ده مقدرش أسيبه.... عارف ليه؟ عشان بناتي.... مقدرش أحرمهم من أبوهم زي ما أنا إتحرمت من أبويه... حتى لو ده هيكون على حسابي".

-"يا كريمة يا حبيبتي، كده كده العيال بتتربى، صحيح إنك اتحرمتي من أبوكي لكن بِسْم الله ما شاء الله عليكي، شوفي بقيتي إيه، أسوأ جريمة ممكن

تعمليها في حق نفسك هو إنك تضيعي عمرك في التعايش مع أوضاع إنتي مش قابلاها لمجرد إنك متخيلة إن مفيش بدائل أو لأنك خايفة من البدائل..

عامة يا حبيبتي أنا جنبك ومعاكي في كل الأحوال".

-"ربنا يخليك ليه يا حبيبي".

ورغم افتقادها للسعادة وشعورها بالوحدة وامتلائها بالفراغ الداخلي كل تلك الأعوام الطويلة، فإنها نجحت في أن تشق طريقها بحماس وقوة إرادة، فانتهت من دراسة الماجستيروالدكتوراه في تخصص الأمراض الجلدية بتفوق، حتى صارت لها عيادتها الخاصة، وذاع صيتها وتردد عليها العديد من علية القوم والمشاهير، فراحت تغدق على ابنتيها دون حساب.... وتغمرهما بالحب والحنان اللذين لم تذق لهما طعماً مع والدتها، مما جعلها تتساءل عن مدى صحة تلك المقولة أن "فاقد الشيء لا يعطيه"، بينما هو لم يجد دافعا للمضي أبعد من دبلومة تحاليل إكلينيكية، وعمل بأحد معامل التحاليل الخاصة، وكان يخطر على بالها كلما نظرت إليه المثل الياباني الشهير "يهب الله الطيور غذاءها، لكن لا بد أن تطير لتحصل عليه".

خمد البركان وعادت إلى غرفتها لتجلس في فراشها مرة ثانية، تفكر في "حسن" أخيها المريض، وفى سعادتها الغائبة عنها، وفى الحزن الساكن داخلها، وفى صبرها الذي تمسكت به قدر استطاعتها.. فلم تجد ملاذا من كل هذه الأفكار سوى الله، ولَم تجد راحة إلا في المصحف الشريف، فتناولته من جانبها حيث تركته، وعادت لتقرأ سورة يوسف من البداية مرة أخرى.. فقد علمتها سورة يوسف أن المريض سيشفى، وأن الغائب سيعود، وأن الحزين سيفرح، وأن الكرب سيرفع، وأن الحق سينتصر، وأن الصبر على قضاء الله إيمان، وأن من بعده يأتي الفرج.. " إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ".

أشياء بسيطة

جيهان جمال

"مُجرد كَلِمات طيبة تَطيب لها النَفس، وأفعَال أَطيب.. يَطيب بها الخَاطِر. وما بالنا أن تَصحبهم ابتسامة بِطَعم هَناءة أيام عِشرة أَحدهم أو إحداهن، وما أروع أن تشي تِلْك الابتسامة بشيء يُزيح ما فِي القلب من أَوجَاع وتَروق به طَبطَبة على كَتِف الروح.

كُلها أشياء بسيطة جدًّا لكِنها كَفيلة بأن تُشعرنا أنا وأنت بأن كِلينا سَند حقيقي للآخر، فكَثيرًا ما نحتاج جدًّا أن نحتمي ممّا قد يلمّ بنا أو يُبَعثِرنا بلا هَوادة في أي من طُرقات أيام الحياة". "ريم حامد"

تلك كانت مُقتطفات من كِتابات "ريم" في عَمودها اليومي "أشياء بسيطة".

"ريم حامد".. هي الكاتبة والأديبة الشابة بتلك المجلة النسائية، وغيرها من الجرائد، والمواقع الإلكترونية، وها هي تستعد لطباعة رابع كتاب لها. ريم لا تَكتب مُجرد كَلمات، بل هي تَسكن مَنازِل السطور، وتُوقِد من حرُوفها شموع ليالٍ خَفتت نجومها، وكَثيراً ما نَظرَت "ريم" لتِلك النجوم، وتَمنت أن تَطَالها بيديها.. لكن يديها لا تُسعفانها سوى بأن تَرسم مع النجوم أساطير من مَحبة، وكُلَّمَا كَادت تِلْك النجوم أن تَختفي مُسافرة عَبر مَجَرات هَدّها التِرحَال، تَبعث لها "ريم" المراسيل في حِيرة لتسألها: أين ضوؤك الآسِر!؟ .
فلا تُجيبها النجوم.. وتُغمض عينيها وتنام.. فتارة تَظنها تُكمل السَفر إنكسارًا عَبر تِلْك المدارَات التي هَدها التِرحَال.. وتارة تُهديها شَمس النهار الأمل في يَوم صَحوهِ

أجمل، فَتُسَافِر "ريم" عَبر الكَلمات تَتلمّس عَبقها وتَرتدي من معَانيها رداءً فضفَاضًا، يَستُر ما قد يَعتري الأيام مِن إخفاقات.. ويُعِينها على القادم مِن تَقلّبات فصولِ الحياة.

وها هي مُتكئِة على كُل تِلْك الأشياء البسيطة مُنذ أربع السنوات التي مَضت من بعد انفصالها تمامًا عن زوجها، وشطب اسمه من على جدار أيامها، ومحوه تمامًا من صَفحة العُمر، وطي صفحات كثيرة من مرارة العيش معه.. إلا صفحة واحدة هي أحلى ما في عُمرها الفائت منه، والقادم.

وهذا بالحقيقة ما كانت تحتاجه من تِلْك الزيجة الفَاشِلة.. فكل ما أدركت أنها تحتاجه هي تلك الصفحة المُشرقة بحياتها ابنتها "ليلى"، ذات الثلاث سنوات، ورغم ما كان لم تَزل "ريم" تنام وتصحُو في بَعضٍ من تفَاصِيل أيام، وليالي تِلْك الكَلمات... فَتجدها حِين يَستدعِيها حضور الغائبين، أو لحظات التلاقي مع من يَعيشون بالقُرب منها تتأهب ليختزل، ويُسرد القلب على سطور زفيرهم يأسًا، وشهيقها أَمَلاً، ويَبعث من رَحِم الأوقات حَياة لن تُكلِفنا سوى تِلْك الأشياء البسيطة، بأن نُعطي بصدق وأن نُحبّ من حولنا بسخاء، وعلى الرَغم من قَسوة التجربة السابقة التي عاشتها مع هذه الزِيجَة المُتسرِعة، والتي أرادت أن تَهرب بها من جَحيم تجربة كانت أكثر مرارة، مع زَوج أُمها الذي كان غَليظ الطَبع والقلب.. لتخرج ريم من تلك التجربة بمرارة، ثم تقع في قَسوة، وأنانية من هو لا يتناسب مع طبيعتها.. فكان عدم التكافؤ في الشعور، والآمال، والعطاء.. كلها أسباب دفعت بها دفعًا للخلاص.

ولكنها تعلمت من التجارب.. أنه كيف لها أن تَستردّ ما أَخذتُه منها الأيام.. وتحتضن به الليالي.. فأكملت دون التفاته، ورحلت بلا عودة.

(٢)

"النجاح العملي ليس كافياً أن يصنع سعادتك، كُن سعيداً في العموم كي تصنع نجاحاتك؛ لأن السعادة هي العائلة الشرعية للنجاح".

"ريم حامد"

صباح أحد الأيام..

إحدى مدارس رياض الأطفال..

في أحيانٍ كَثيرة، وكلّما ذَهبت "ريم" لأخذ ابنتها من مدرسة رياض الأطفال التي انضمت إليها هذا العام، وبعد انتهاء عَملها بالمجلة.. يَسترعي انتباهها هذا الرجُل.. فهي تَعرفه من عَينيه السوداء التي مازالت تَحمل ذات النظرة القوية، والتي كُلَّمَا اقتربت منها سُرعان ما تَكتشِف أنها غارقة في بحور ناعمة الأحزان.

هذا كان تَفسيرها لنظرته حين كَبرت، وكلما تَذكرته مع الكثيرين ممن كانوا معها من البنين والبنات.

"شريف الطماوي" الذي كان قد أُنتزع من بُستان أيامهم البريئة.. ليصير غير متواجد بينهم ما بين يوم وليلة.. في ذاك الفصل الابتدائي، وكما عَلموا بعدها من مُدَرِّسَةِ اللغة العربية؛ أنه سَافر مع والديه لإحدى مُدن الخليج؛ حيث سيبدأ عَمل والديه هُناك.. فَحزنوا عليه جميعًا.

ومن يَومها كُلَّمَا كانت تمضى بها الأيام، وتَكبر أحزانها، تتَذكره، ولا تدرى لماذا. ربما كانت تستوعب حالته أكثر وأكثر. وها هي تَستوقِف الذكريات، وترجوها التَفاتة لتؤكِد لها أنه هو!، وأن تلك الخطوة أيضًا هي خَطوة قَدمه اليُسرى التي لن تخطئ ذكراها.. مُنذ أن كَانوا أطفالاً في السنوات الأربع الأولى لهم في الدراسة الابتدائية، فقد كان عنده خطوة بالقدم اليسرى ليست عادية.. أنه هو.

بعد مرور شهر..

"وليس شرطاً أن يكون الجاني رجلًا، والمجني عليه امرأة.. فلا أحد منا يُنكر أن الأنانية سَقطة إنسانية.. قد يقع فيها أي منهما، فلن ندفن رؤوسنا في الرِمال، ولنعترف نحن النساء أن بيننا أَمثلة صارخة لنساء شديدات الأنانية".

"ريم حامد"

حَفل عيد الأُم ..

الأطفال حاضرون الاحتفال.. فَرحون بنات وبنين بالأدوار التي يَلعبونها في المسرحية، والرقصات، والموسيقى.. عدا "چولي" ابنة "شريف". وأولياء الأمور سُعداء، يتقدمون بالشُكر لإدارة المَدرسة، مُستمتعين جدًّا بأطفالهم، والكُل يُصفق ويمرح مع الأطفال.

يَنتهي الحَفل على فرحة تملأ قلوب من تَواجدوا في احتفال عيد الأم، عدا قلب "چودي"، لأنها لم تكن ضمن الأطفال الحاضرين.

في مَنزل شريف...

مدام "لبنى" والدة "شريف" سيدة رقيقة تنتصف الستينيات من العمر، وها هي تَروح، وتَجيء بالمَنزل.. من بعد استدعاء "شريف" لها وهو في حالة من الإعياء والتوتر الشديد. تمسك بالهاتف تَستدعي زَوجها، وتطلب منه الحضور في أَسرع وقت، لأن "شريف وچولي" قَد تَناولا وجبة غذاء تيك أوي، وغالب الظَن أنها كانت مُلوثة، فحرارتهما مُرتفعة جدًّا، مع القيء المُستمر لمدة يوم كَامل، وَكُل الأدوية التي قَد وَصفها الطبيب لهما غَير مُجدية بالمَرة.. فالحَالة تَزداد سوءًا، ولذا قررا نَقلهما للمُستشفى.

(٣)

هذا كان سبب عدم حضور "چولي" مع جَدتها كما اعتادا بحفل عيد الأم. فَمُنذ انفصال "شريف" عن زوجته.. قَرر بالاتفاق مع والدته أن تَعيش "چولي" كُل أيامها، ومراحل عُمُرها بشكل عادي، وطبيعي إلى حدّ ما! بعد أن تنازلت أمها عن حضانتها بكامل حريتها، وسوف تجيء الأيام لتقف "چولي" على حقيقة العلاقة بين والدها، ووالدتها. أما والد "شريف" ووالدته ففي حالة حُزن دائم على وضع ابنهم، وابنته.

أيام جديدة..

"إذا شعرنا يوماً بأننا لم ننجح في اختيار ما، واكتشفنا أننا جزء مُشارِك في خَيباتنا.. بعدما سَمحنا لمن وضعَتهم الأيام في طَريقنا، أن يشاركونا الحياة بخذلاننا، ورأيناهم، وهم لا يَعرفون كيف يَشعرون بِنَا أم بمن حولنا، ولا يُقدرون قيمة العَطاء.. أو لأن أيامنا صحبتنا معها بمن تستوي عندهم كُل المعاني، والمواقف بالحياة.. فلا يُدركون أي فرق بين ما يستحق، وما لا يستحق أن نتنازل لأجله..

فلا علينا، ولا بأس، ولا يأس.. فَهُم وحَدهُم الخاسرون".

"ريم حامد"

في المستشفى..

تَجلِس الأم حَزينة على حَال ابنها، وحفيدتها، وتتذكر زوجة ابنها التي فضَّلت الحياة العملية على الحياة الأُسرية المُستقرة، رافضة العمل بمصروسط عائلتها الصغيرة، بعدما أَغراها عقد عَمل جديد بالشركة التي كان يَعمل بها والدها بالدولة الخليجية التي كانوا بها.. تَاركة ابنتها لأبيها بمنتهى السهولة، وكأنها تركت حقيبة ملابسها.

لا يُعكِر صفو "لبنى" سِوى حَال ابنها الذي دائمًا ما تَعتبره قليل الحظ!، خاصة بعد إصابته وهو طفل بضعف شديد في عضلة القدم اليُسرى إثر ارتفاع شديد في درجة حرارة جسده، والذي ظل يصاحبه طوال شهر كامل.. مما أثَّر على حركته، وظلّ ملازمًا له مؤثرًا على حركة سير قدمه اليسرى إلى حد ما حتى اليوم.

عمود ريم الصحفي..

"حتى وإن ظُلِمْتَ، أو ظَلَمْتَ، وإن جَهِلْتَ، أو جُهِّلَ بك، قِف ولا تُدمن التعَالي على أية مواقف تواجهك بها الحياة، قِف معها وجهًا لوجه، ولا تُعلق أخطاءك أو أخطاء الغير معك، وتجاوزاتك أو تجاوزات الغير معك على شَماعة الظروف.

فَنحن الذين نَصنع الظروف، ولا تجعل الحزن المُرافق لأيامك هو ضريبة براءة اندفاعك.. أو غباء تَصرفاتك تجاه نفسك أو تجاه الآخر فلنطرُد الأحزان لنعِيش "المواجهة"".

"ريم حامد"

شريف على سرير المستشفى..

مُمسكًا باللابتوب يُعيد قراءة تِلْك الكلمات التي مَست قلبه، ووجدانه، تُراه يُمعن النظر جدًّا في صورة صَاحبة الكلمات، ويُدقق جدًّا في اسمها، وها هو يُحادث نَفسه عن هذا الاسم.. أنه يَعرفه.. لَكن صاحبة الصورة ربما يَتشكك في مَعرفتها.. فَيُرجح أنه رُبما أيضًا قد يكون مُجرد تَشابه أسماء مع زميلته، التي كانت معه في تلك المدرسة الابتدائية. تنتهي أزمة مرض شريف، وابنته، ويخرجان من المستشفى عائدين إلى منزلهما.

(٤)

"كن قَويًّا مهما كانت الظروف المحِيطة بك كي تصنع نجاحاتك.. وتستمتع بالحياة".

"ريم حامد"

في دار الطباعة والنشر..

شريف في مكتبه بدار الطباعة والنشر، التي افتتحها بعد استقراره، وعائلته الكبيرة بالقاهرة.. مُنذ عام. يَنظر ويستشعر كلمَات "ريم حامد" التي يتابعها باهتمام عبر عمودها "أشياء بسيطة"، ويتذكر كيف أن زوجته ما أرادت أن تكون إلى جانبه بالقاهرة، فعادت للخليج كي تُرضي طموحها الشَخصي على حِسَاب ابنتها، وزوجها، وكيف أنها فضَّلت وجودها إلى جانب عائلتها الرافضة للعودة للقاهرة، واعتبرت أن قرارها هذا هو الأفضل لها، وكيف أنها ارتضت أن يكون نجاحها على حساب سعادة ابنتها، وزوجها.

في رياض الأطفال..

تَعود الحياة لطبيعتها ويذهب شريف إلى رياض الأطفال، كي يأخذ ابنته بعد عودته من عمله. الجميع يُرَحب به، ويهنئه على سَلامته، وسلامة چولي. في تلك الأثناء تَحضر "ريم" لأخذ ابنتها "ليلى"، ولأول مرة يُشاهد "شريف" وجه "ريم" عن قُرْب.

تأخُذهما تِلْك الالتفاتة التي بدت عليهما في ذات اللحظة، وكأنهما كانا بالجوار يومًا ما.. ثم تَفرقا .. وهاهما يفترقان الآن، ويمضيان كُل في طريقه. وها هي "ريم" تتأكد من أنه هو! وتلك أيضًا خَطوة قَدمه مُنذ كَانوا أطفالًا في السنوات الأربع الأولى بالدراسة الابتدائية، فَهي مُتأكدة تمامًا، أنه كان يخطو خطوة بالقدم اليسرى ليست عادية أبدًا.. أنه هو!

وأنه أيضًا هو هذا الرجُل الذي يَشد مَشاعرها بحنانه الذي يتراءى أمام عينيها باحتضانه لابنته، حين يَحضر لأخذها بعد انتهاء عَمله، وهذه هي ابنته "چولي" ذات السنوات الأربع، والتي تُقارِب ابنتها "ليلى" في العُمر، وهي زميلتها في الفصل ذاته. ثم يَشدها الفضول للسؤال عنه، وعن ظروفه.. فهو حالة إنسانية يَجذبها التَعَرف عليها.

بالاستفسار من المُدَرِّسَةِ المُشرِفة على الفصل، تؤكد لها المُدرسة إحساسها أنه هو.. لكن زوجته أم "چولي" مُنفصلة عنه، وليست موجودة بمصر.

تخبرها أنها مُهندسة بإحدى الدول الخليجية.. ليأخذ "ريم" التفكير في تِلْك الزوجة التي لا تعرفها، والتي انفصل عنها "شريف"، وتحادث نفسَها ربما هي كانت مَعه في نفس الدولة التي هاجروا إليها، وهو طفل، وربما تَكون أيضًا كانت هي مَنْ أَكمَلت معه زمالة الدراسة ورِفقة الأيام.. بدلا منها.

(٥)

"هي أشياء لن تُكلفنا على مر الزمن سوى أن نتعامل بأجمل ما في قلوبنا من مشاعر إنسانية، فتلك الأشياء لا تُباع، ولا تُشتَرى، لكنها كَفيلة أن تجعل كلاً منا إنساناً".

"ريم حامد"

أسبوع جديد..

شريف تبدو على وجهه ملامح أطياف السنوات.. التي تخبر أنه مهما كان مُنشغِلًا بعمله في دار النشر؛ إلا أنه دائمًا ما تُزاحمه الذكريات، ويَتذكر أيام دراسته الجامعية في كُلية الألسن، وكيف أنه تَخصص في الأدب والنقد، ويتذكر زواجه بعد تَخرجه، وكيف أنه كُلَّمَا أراد أن يقرأ شيئًا، أو يَتناقش مع زوجته وزميلة عُمره، وأيامه في أي نَص أدبي.. كيف كان رد فِعلها.

فهي لا تؤمن على الإطلاق بتأثير الكلمة على المشاعر الإنسانية، وكيف أنه فيما بعد صارت عِشرتهما بلا روح، وما عاد يَطلب منها أي مُشاركة على الإطلاق.

"من يَجعلك تحتار، ولا تَعرف كَيف تُصنفه من بين صُنوف وألوان البَشر، هل هو شرير أم لا !؟، بخيل أم لا !؟، مُحِب أم لا !؟.. لا يستحقك.. نعم لا يستحقك.

من يستحقك ستجد عنده إجابات قبلما يتبادر لذهنك أي سؤال".

"ريم حامد"

يقرأ شريف كلمات ريم، ليُغلق صفحة زوجته نهائيًا، مُعتبرًا أن كُل ما بينهما ابنته وفقط!، لتسير الأيام والليالي به ما بين عَمله، ورعايته لابنته، ورعاية أمه وأبيه لهما نظرًا لظروفه.. ثم تأخذ الأسرة كُلها أجازة لمدة أسبوعين في الساحل الشمالي للاستجمام يَعُود بعدها "شريف" إلى مَكتبه ليجد مُدير مكتبه يُخبره أن الكاتبة "ريم حامد" قد أَتت إلى دار النشر لطباعة كتابها "أشياء بسيطة"، أثناء سَفره، وقد تم تأجيل الموعد لحين وصوله، وهي على وصول الآن لمقابلته تَبعًا للموعد الذي رتبته الإدارة معها.

يَعود بالذاكرة لتلك المرأة التي وقعت عيناه عليها في دار رياض الأطفال، ليتذكر أنه رُبما ما لَفت نَظره فيها أنها تُشبه صورة "ريم حامد".

السكرتارية تُبلغه بوصول الكاتبة "ريم حامد"، ليقع شريف في حَالة من الارتباك الملهوف، ولا يَعرف من أين أتته تلك الحالة.

تَدخل ريم عليه المكتب بهدوء شديد، وهي لا تَعرِف أنه هو صاحب دار نشر "الحياة"، يَنظُر "شريف" إلى "ريم" ليراها تبدو بوجه صبوح.. مُبتسم للأيام.

تُبادله تِلْك النظرة من عينيها البنية الجميلة السابحة في الأحلام.. وهاهو شعرها المسترسل على وجهها الخمري.

يرَحّب بها.. ثم يقف الاثنان على حافة هاوية السؤال.. لينطق القلب في ذات اللحظة، وينطلق السؤال على شفاههما:

- من أنتَ!؟

- من أنتِ!؟

لتأتي الإجابة على جناح الشوق.. فقد طال حنين "شريف" لصاحبة الكلمات، وطال حنين "ريم" لزميل الدراسة، وصديق الطفولة.

فهل سيُصبِح هو أيضًا الصاحب القادم من الأيام، لتكتمل الحكايات ويلتقيا سَويًا على سطور الحياة ؟.

أيام جديدة..

عمود ريم الصحفي..

"التكامل هو أن يكون لنا نصيب يَوماً ما في أن نلتقي، ويَصُب شهد الأيام في بحور أيام سَاقها لنا القدر.. لنَعيشها معًا".

"ريم ماجد"

حمل في ثوب ذئب

دينا أبو الوفا

كما جرت العادة على مدار الأعوام القليلة الماضية، داهم خلوتها الليلة دون سابق موعد أو استئذان، ذلك الضيف الثقيل، بالرغم من أنها كانت قد استحلفته مراراً وتكراراً إلا يعاود زيارتها على هذا النحو مرة أخرى.

فقد أنهكها حضوره المتكرر بلا داعٍ، وأضاف إلى أعبائها عبئاً آخر، كانت في غنى كامل عنه.. فكان يكفيها ويفيض ما هي فيه.

إلا أنه أبى أن يرحل عنها أو يتركها لحال سبيلها، بل كان ينتقي دوماً أسوأ التوقيتات وأحلكها، ليفاجئها بزيارته في غفلة منها، وكأن الرحمة قد انتزعت من قلبه، فاختار أن يتجاهل توسلاتها واستجداءاتها، فظل يلاحقها أينما كانت.

والليلة عاد لزيارتها مجدداً... شعرت به يتسلل خلسة داخل رأسها، ليعلن عن حضوره بتلك الزغللة المفاجأة في عينيها، تلاها سريعاً تنميلٌ عنيفٌ أصاب الشطر الأيمن من وجهها، مصحوباً بإحساس قاتل بأن رأسها قد اصطفت فوقه كل الطبول الإفريقية، فتلاحق وعلا إيقاعها بهمجية وعنف.

لذا لم تجد بداً من الاختلاء بنفسها في حجرة نومها، فلطالما عثرت على راحتها في تلك الغرفة، وآوت إليها كلما أثقلتها أوجاع الحياة.

لقد اختارت معه كل تفصيلة صغيرة بها.. أثاثها البني "الماهوجنى" الفخم ذا "الاويمه" الفرنسية العتيقة والمخدع الفسيح بظهره "الكابيتونيه" البترولي المرتفع، ومرآتها الكبيرة، التي اتسعت دوما لتضم انعكاس صورتهما معاً كلما وقفا أمامها جنباً إلى جنب.

هنا، في غرفة نومها تكون أقرب ما يكون إلى زوجها، تشكو إليه أحزاناً وأوجاعاً، قد أخذت من قلبها سكناً دائماً، وتصارحه باشتياق واحتياج، قد ترك نفسها خالية من كل ملذات الدنيا ومتعها، فتحتضن كل ليلة صورته، التي لم تفارق الطاولة الخشبية بجانبها، تبكى فتبلل دموعها خديه، إلى أن تغفو كالرضيعة بين ذراعيه.

أطفأت جميع الأنوار، وأغلقت جهاز التلفاز، فالصخب داخل رأسها لا يحتمل المزيد... هكذا كان يقلق راحتها وهدوء بالها صداعها النصفي! ولكن أي "راحة"؟ وأي "هدوء"؟... هل تمزح أم تكابر أم تكذب على نفسها!؟.. هل تنوى خداع نفسها، كما احترفت على مر الأعوام خداع كل من حولها؟

فهاتان الكلمتان قد حذفتا من قاموس "صابرين" مع باقي مرادفاتهما، منذ أمد بعيد، حين توفى زوجها "مصطفى" إثر حادث سيارة، منذ ما يقرب من خمسة أعوام، بعد زواج لم يدم سوى أربعة أعوام، تاركاً إياها وثمرة ذلك الرباط المقدس، "هنا" التي كانت قد تمت حينها من الأعوام ثلاثة و"إسماعيل" بالكاد كان قد تم عاماً واحداً.

وعلى الرغم من أنهما تزوجا زواجا تقليديا، أو كما يطلق عليه "زواج صالونات" خلى في بداياته من كل ألوان الرومانسية، وافتقر إلى كل أشكال الهيام والشوق، فإن ما جمع بينهما بعد الزواج كان أقوى وأعمق بكثير.

فقد جمع بينهما ما أوصى الله به من مودة ورحمة... جمع بينهما صبر وجلد، فلم يكن ليصيبهما سهم غادر من سهام الحياة أو تعرقل خطواتهما الثابتة الواثقة عقبة مهما عظمت، بل كان يقف كل منهما ظهره في ظهر الآخر، شاهراً سيفه المغوار في وجه تحديات الأيام واختباراتها.

حتى وأن تعرقلت خطوات أحدهما بمطبات الحياة المفاجأة، مد الآخر يده إليه وجذبه بقوة، ليقف منتصباً على قدميه من جديد.

جمع بينهما الإخلاص والوفاء، فاكتفى بأحدهما الآخر رفيقاً وأنيساً لدرب الحياة.

جمع بينهما الاحترام الكامل لكينونة الآخر وشخصيته المستقلة وأحلامه الخاصة التي تسكن بداخله، فكان كل منهما سنداً للآخر في رحلة تحقيق الذات، فتارة تمد له يدها كي يبلغ القمة بجانبها، وتارة أخرى يجعل هو من نفسه جسراً تعبره هي، لبر النجاح.

جمع بينهما حبهما وخوفهما الدائمان على أولادهما، وإحساسهما الفطري بالمسئولية تجاههما، فلم يدخرا جهداً أو سبيلاً لإدخال السعادة على قلبيهما.. أو ليس هذا هو الحب الحقيقي الذي يدوم، أو ربما هو شعور أسمى وأرقى من الحب ذاته!!؟

فكيف لا تفتقد كل تلك المشاعر التي تركت بزوالها، فراغاً بداخلها لا تملأه مشاعر الكون وأن اجتمعت تحت قدميها!؟ وكيف لا تتوق بعد رحيله لتلك الأيام، كما يتوق الصائم لشربة ماء ندية، تبرد قلبه بعدما أنهكته شمس يوم صيف ثقيل!؟

أصبحت بعد رحيله أرملة... لم تع ما ستتكبده، كونها حاملة لهذا اللقب، الذي لم تجتبيه لنفسها، بل كان قدراً كتب على جبينها، وأن الأوان لتقرأ سطوره...كان عليها أن تلعب دور الأم والأب معاً، فتجسد كل ما يمثله الأب كعمود فقرى، ترتكز عليه العائلة وتتوازن به خطاها في رحلة الحياة... فكيف لها ذلك!؟..... كيف تقدم لأولادها ما تفتقر هي إليه وصارت في أشد الحاجة إليه!؟

ناهيك عن الالتزامات المادية التي كانت من قبل تتقاسمها مع "مصطفى".

لقد وجدت نفسها وقد تسلمت مسئولية كل تلك الالتزامات بمفردها... كيف براتبها المتواضع الذي تتقاضاه كرئيس قسم في إحدى الجرائد المحلية!؟

وبرغم تلك الضائقة المالية، كانت ترفض مساعدة والدتها مدام "خديجة" لها قائلة لها:

"يا ماما الله يكرمك... إزاى بس آخد منك فلوس... إش حال إنى عارفة اللي فيها وعارفة البير وغطاه... إنت طول عمرك ست بيت ومشتغلتيش، وملكيش دخل، ويا دوب مكفية أكلك وشربك وأدويتك كل شهر من معاش بابا الله يرحمه ويحسن إليه.

يبقى إزاى يعني آخد منك!!؟؟.... اللي ميشفش مالغربال يبقى أعمى... متشغليش بالك بيه يا ست الكل... أنا زى الفل وربنا كبير".

كانت عزة نفسها هي المتحدث الرسمي عنها، كلما تعلق الأمر بمساعدات ومعونات خارجية، على الرغم من أن جدران حجرتها الأربعة كانت آذان صاغية لحديثها مع ذاتها كل ليلة، وهي تمسك بورقة وقلم تحسب مصاريف المعيشة:

" آدى كده قسط المدرسة كمل بالمبلغ ده الحمد لله.. يبقى ده يا دوب مصروف البيت مش هينفع أكتر... وده للكهربا وربنا يسترع الفاتورة الشهر ده... وده تمرين السباحة بتاع "هنا"... وده مبلغ لازم أجيب بيه كام تى شيرت للولاد".

تظل تجمع وتطرح ثم تعيد الكرة مرة أخرى لعلها أخطأت في حسبة ما... فالمال نفد قبل أن تنفد لائحة الطلبات!!!! تظل تحدق في الأرقام بنظرة لائمة، لعل لها قلباً يحن عليها...

وحين تدرك أن نظراتها لم تسفر عن شيء، تضع الورقة في الدرج بجانبها وتطفئ ضوء الأباجورة، وتخلد إلى النوم... لتستلقي بجانبها الهموم والحمول والأفكار والأحزان، بعد أن أزاحتها عن كتفيها مؤقتا حتى الصباح.

ليت معاناتها اقتصرت على ذلك، ولكن ما فرض عليها فرضا أن تتكبده خارج إطار تربية أولادها وتحمل الأعباء المادية، كان أصعب وأكثر إيلاماً...

كونها أرملة في مقتبل العمر لم تتجاوز بعد الثالثة والثلاثين، جعلها في نظر أغلب الرجال غزالاً برياً شارداً، سهل المنال، فالحرمان يولد الحاجة، والحاجة تدعو إلى اللهفة، واللهفة تقود إلى الاندفاع.... أليس كذلك؟

نسوا أن تلك القواعد العامة ربما تنطبق على الرجال، لكنها لا تنطبق بالضرورة على الكثير من النساء، خصوصاً إن كنّ قد ذقن سلفاً، على يد حبيب، طعم الحب الحقيقي، فاكتفين بالعيش على ذكرى مذاقه العذب في ثغرهن.... أضف إلى هذا حقيقة كون بعضهن أمهات، فالأم تجد في أطفالها مصدرا غنياً للحب، يغنيها عن التنقيب عنه في مناجم أخرى، فتمسى ابتساماتهم وضحكاتهم مفتاح سعادتها، وحين تحتضنهم فكأنما امتلكت بين ذراعيها الدنيا وما عليها.

ولأن تلك حقيقة يصعب على أغلب الرجال تفهمها وتقبلها، فقد لاحقها الكثيرون بسهام كيوبيد السامة، تارة زميل في العمل لا يدرك للزمالة معنى، فيدعوها لزيارته في منزله الخاص، وتارة جار لا يفهم في آداب الجيرة شيئا فيخترقها بنظراته الثاقبة، وتارة زوج صديقة تجرد من كل أشكال النخوة والرجولة، فراح يغازلها بوقاحة من وراء زوجته، وتارة أخرى كائن غريب من كائنات الفيسبوك الطفيلية اللزجة، يحاول أن يلعب أمامها دور العاشق الولهان، الذي أخفق في مقاومة سحرها الخلاب، فيلاحقها برسائل ملحة على " إنبوكس"، فتمحوها دون حتى أن تفتحها وتتم قراءتها.

وأمام كل هذا، لم يكن باستطاعتها سوى استعراض قوى المرأة العفيفة الشريفة، فتصير الغزالة أسداً شرساً، يفترس الصياد وينهش لحمه حياً، بعد أن سوَّلت له نفسه أنه على وشك افتراسها وغرس أنيابه بها، حتى إن الذهول

كان يصيب معظم هؤلاء الرجال، فيتساءلون: أين ذهب ذلك الحمل الوديع الذي انجذبوا إليه!؟

والإجابة تكمن في أنه، في أحيان كثيرة لا تتناسب طبيعة الحمل بداخلنا مع هذا الزمان الذي نعيشه، فنرتدي رغماً عنا ثوباً لا يشبهنا، لكنه بالتأكيد يليق بكثير من البشر حولنا.... ولكن ما أصعبه وما أقساه من شعور أن نظهر بغير طبيعتنا، فقد اعتدنا أن نرى ذئباً في ثوب حمل، لكننا لم نعتد أن نرى حملاً في ثوب ذئب!!

وما إن تنفرد بنفسها، حتى تزيح عنها ذلك الثوب وتعود لطبيعتها الوديعة، تماماً كما فعلت الليلة، بعدما عادت من العمل في وقت متأخر.

وبالرغم من أن ما حدث الْيَوْمَ كان كفيلاً بأن يجعلها سعيدة مبتهجة، تحلق بجناحيها في السماء الزرقاء، فإنه جعلها كالعصفور الحزين المنكسر في ليلة شتاء عاصفة. فقد تلقت الْيَوْمَ خبر ترقيتها، لتصبح مساعد رئيس تحرير، مما أسعدها في بادئ الأمر حتى تأتي إلى مسامعها عن طريق الصدفة، حوار بين صحفيتين تعملان معها. كانت هي داخل إحدى كبائن الحمام، عندما دخلت "مها" و" سامية " من الباب الرئيسي للحمام، ربما لتتفقدان طبقات مكياجهما الثقيل، لعلهما بحاجة لإضافة طبقة أخرى أو إعادة وضع الروج بعد أن التهمتا سندوتشات الفول والطعمية:

- شوفتي يا ستي صابرين هانم... مكملتش ٣٤ سنة، والهانم بقت رئيس قلم.... ليه يعني... عملت إيه!؟

-هههه مش عارفة يختي عملت إيه!! عملت اللي بتعمله أي واحدة صغيرة وحلوة ومغمورة وعاوزة توصل بسرعة.

-على رأيك... والله عندك حق... هو في حد في الجرنال ميعرفش رئيس التحرير هيموت عليها إزاي.

-أديكي قلتيها... هيموت عليها... وهي أرملة لا في راجل يحاسبها ولا يقولها بتعملي إيه.. يبقى تسيب الراجل يموت ولا تريحه وتستفيد.

-تريحه وتستفيد طبعا.

وانطلقت منهما ضحكات خليعة أبكت "صابرين" في صمت داخل الحمام. ظلت مختبئة بالداخل لما يقرب من عشر دقائق، غير قادرة على الحراك.

أهكذا يراها من حولها!!؟؟.. ألهذه الأسباب الدنيئة ينسبون تفوقها وتميزها وصعودها سلم النجاح!؟....

ماذا عن الليالي التي قضتها حتى ساعات متأخرة في الجريدة، لتنهي مقالاً، أو تراجع لزملائها مقالاتهم قبل النشر؟

ماذا عن كل اللقاءات التي نجحت في إتمامها والحوارات التي تمكنت من إجرائها مع رجال دولة كبار وساسة وقادة بفضل مثابرتها وتصميمها وصبرها وتفانيها، والتي انتهت بتحرير مقالات دسمة وهادفة، أخفق من هم أقدم منها في المهنة في القيام بها؟؟....

ماذا عن "أن الله لا يُضَيِّع أجر من أحسن عملاً"؟؟... ألم يسمعوا عنها من قبل!!؟؟. ...

ومن بين اللائحة الطويلة من التضحيات المُحتملة- من وقت وجهد وصحة وراحة بال- لِمَ لَمْ يصل إلى أذهانهم سوى أنها ضحت بشرفها!؟

ألأنها صغيرة في السن؟، ألأنها جميلة وجذابة؟، ألأنها محط إعجاب الرجال؟، ألأنها أرملة بلا رقيب؟.

ألأن رئيس التحرير معجب بها، فذلك يعني تلقائياً أنها قدمت نفسها على طبق من فضة لتختصر الطريق الطويل!؟...

ربما لو عرفوا أنه قد عرض عليها الزواج منذ عام على سُنة الله ورسوله، لتكون له زوجة ثانية، وأنها قابلت طلبه بالرفض، لما واصلوا على مدى عام كامل إطلاق الشائعات المشينة عليها، والتي تكبدت قسوة الاستماع إليها وهي تنتقل من لسان لآخر. لو علموا برفضها، لما ظنوا فيها هذا الظن المفجع...

رفضت لأنها ترى في ذلك خيانة لزوجها الذي ما زالت ترتدي خاتم زواجه بجانب خاتمها.

زوجها الذي لا يزال يستلقى بجانبها في السرير كل ليلة، فتشم رائحة عطره الهادئ. زوجها الذي لا زالت حتى اليوم تضع طبقه، وأدوات أكله على طاولة الطعام عند مقعده بجانبها، كلما جلست مع أولادها ليتناولوا الطعام.

زوجها الذي لا زالت تراه واقفاً بجانبها أمام المرآة، ينظر إليها، ويمتدح أناقتها ورقتها ويطبع قبلة حانية على رأسها.

كيف لامرأة كتلك أن تُقْدِمَ على ما يظنون!!؟

كل تلك الأفكار المتطايرة المتضاربة، كانت سبباً كافياً لإصابتها بأعنف درجات الصداع النصفي في تلك الليلة.

قامت لتطل على أولادها وتطمئن عليهما... دخلت غرفتهما فوجدتهما يغطان في نوم عميق، فقبلت كل منهما قبلة طويلة على يديهما، عادت بعدها إلى حجرتها، فاستلقت بجانب زوجها وابتسمت له قائلة:

"متخفش عليه، ولا تقلق نفسك.... إنت عارفنى قوية وصلبة... يا جبل ما يهزك ريح.... هسيبهم يموتوا بغيظهم.... أنا هنام وبكره هبقى تمام وزى الفل... هدب برجلى في الأرض كالعادة، وهرفع راسى قدام الكل، وهبتسم في وشهم كلهم ولا كأن في حاجة، وهكمل شغلى وهواصل نجاحى..... وهنحتفل بيه مع بعض..... تصبح على خيريا حبيبي".

أيامها الحلوة

جيهان جمال

كَالبعض من النساء هي "رَهف" تخاف من التَعرف على ما سَتُخبئه سخافات الأيام.. رغم شَغفِها المستتر كمُعظمهِن بالتَمعُن في وشوشَات مُختلفة الرتوش، أو صامتة الهَمْس، ساكنة بين إشارات حلم ليل فائت.. ربما يشدها للحظات الصحو منه.. إلا أنها تمضي مع كل ليلة من ليالي العمر، ولتأتِ كُل الأيام بما تَهوى وبما تَشاء، وبما تحلو لها الأقدار.

وها هي الحياة تُغربل الأيام، وتَمضي الليالي بالجميع ليبقى البعض، ويرحل الآخرون.

وها هي سَفِينة الرَاحِلين تُبحر بمن راقت لهم، ومعهم، وبهم الحياة.

ها هي تُبحر دون استئذان فيرحلون..

ليعلمها الزمن درسه القاسي، وهو أن الطيبين لا يمكثون بيننا على الأرض كثيراً!

هذه القلوب التي تَسكُننا، ونَسكُنها، أو حتى تلك العابرة بيننا في طرقات الحياة.. حتماً كل القلوب سوف تمُر عَلينا، وتترك بصمة رائحة ذكرياتنا معها، وكأنها زهور فواحة تنثر عبيرها هنا أو هناك، بعِطر النقاء في بُستَان العُمر.

لترى رهف أن تِلْك "اللمة الهنية" للعلاقات الإنسانية الطيبة، قَد أَفلَحت كَثيراً في أن تُرَطِّبَ بعضاً من جفاء، كان يحَلُ ضيفاً ثَقِيلاً عليها أحياناً مع الأيام!

هذه اللَمة التي يراها البعض من حافظي ود الأيام، غالبا ما تصير مع السنوات هي زادهم، وذوَّادهم في رحلة العمر للاحتفاظ بكثير من دفء المشاعر، وسط أُنس الأهل، والخِلَّان، الذي ينساب بفيض من محبة، كان متناغماً مع لحَظات اللقاء بنعومة وطواعية.. ليحدد مطارح من سيسكنون في القلب.

جيران الدار..

كانت تِلك الجيرة جميلة الأقدار، هي جيرة أول سنوات زواجها.. وكانت أيامها هنية الصُحبة مع جارتيها "نهى وهنى".

ثلاثتهن يتقاربن الأعمار، وإن كانت "رهف" أصغرهن سناً.

ويوماً بعد يوم صارت البيوت الثلاثة بيتاً واحداً، والقلوب الثلاثة قلباً واحداً.. فتقاسمن الفرح والحزن.

لتمر السنوات بهن، وبأطفالهن، وأزواجهن.. ما بين يُسر وعُسر الأيام تارة، وما بين هِدوئها، وصَخبها تارة أخرى.

أيامها الحلوة.. ٢

وكعادة الأيام والليالي في سُرعة الخُطو.. كان لا يستوقفهما شيء، ولا يتمهلان لأحد.

ليَكبر صبيان وبنات الجارات الثلاث، ويتهيأ جميعهم لدخول الجامعات.

ذات يوم.. تفاجئهم "رهف "، وهي في منتهى الحزن على فراقها إياهم.. بأنها لا بد أن تنتقل لشقتها الجديدة لظروف طارئة على عمل زوجها.

إذ كانت تلك الشقة الفاخرة التي كانوا قد اشتروها منذ سنوات، وتركوها جانباً، ولم يفكروا في الانتقال إليها حينها لراحتهم وسط تلك الصحبة المحبة من الجيران.

ففضَّلت "رهف" صُحبتها، وجِيرة بيتها القديم.. الذي تَعلمت فيه كَيف تَحبو مع الحياة.

عبق الذكريات..

كان دوام الحال دائماً من المحال.. وبخاصة بعد أن أصبح وداع العِشْرَةِ الطيبة ضرورةً مُلحةً، ولا بد أن تنتقل لبيتها الجديد، حاملة حُبها لهم معها بين طيات الروح، وكل عبق ذاك الحب الذي كان مازال عالقاً بالأثاث الذي كان يفترش به البيت القديم، والذي ما تَخيلت "رهف" أنها ستُفارقه يوماً.

تتذكر كيف أنها رأت بعينيها الكثيرين، واندهشت منهم حين كانوا ينتقلون لأي مسكن جديد.. بأثاث جديد، ويتخيرون جيراناً جدداً أيضاً.. غير عابئين بمعاني كثيرة، وربما رأت منهم مَنْ كان يلقي بالجيرة القديمة خلف ظَهره، ولا يُرِيد حتى أن يَزورها بالذكريات!

ورأت القليل منهم أيضاً كمثلها.. الذي كان يحمل أثاثه القديم بكل عَبق الذكريات، وروايح الزمن الذي عاشوه، وعَاش فيهم.

تشعر رهف أن هذا الأثاث ليس مُجرد جماد لا يشعر بأصحابه.. فَلربما شَعر بهم يوماً ما.. حين حمل أَحدهم إليه لحظات كثيرة مؤثرة، أو حين فضفض بعضهم بأوجاعه الخاصة جداً وَهُو يتكئ عليه!، كما تحادث رهف أشياءها، وأثاثها القديم الآن، وها هي تهمس قائلة:

على هذه الأريكة كنا نجلس، وعلى هذه الطاولة كنا نتناول طعامنا.. وهنا ضَحِكنا، وهُناك بَكينا، وهُنا.. وهُنا.. وهُنا.

وهكذا فكل قطعة أثاث هي شريك عزيز علينا، ولا يمكن لنا أن ننكر أننا تقاسمنا معه الحياة.

ولا مَانع من إضافة بعض الأثاث الجديد، أو التعرف على صُحبة جديدة من الجيران.. كل هذا لا بأس به أبدا.. فالتواصل الإنساني شيء مهم جدا.. شريطة أن يحافظ كُل طَرف على لُغَة الوصال مع قلوب قد طاب لهم قبلا سكناها.

فكُلُّنا في تلك المحطات الحياتية جميعاً عابرو سبيل.

البيت الجديد..

بعد أن انتقلت لبَيتها الجديد، كانت تَسعد كثيراً حين تأتيها "نُهى" للزيارة ما بين الحين والحين، ثم ما لبثت أن انتقلت "نهى" لسكن يجاورها إلى حد ما.. بعد فترة وجيزة جدا.

أما "هنى" فلم تستطع العيش دونهما، وكادت أن تدخُل في مراحل اكتئابية.. حتى غادرت هي الأخرى السَكن، وانتقلت لشقة أخرى.. بعد إلحاح منها على زوجها.

وكأن تلك الانتقالات المتتالية لثلاثتهن كانت مقدمة لوشوشات إشارات الأقدار بِفُرقتهُن في هذه الدنيا.

فجر أحد الأيام..

يدق تليفون منزل "رهف" فجرا.. ترفع السماعة.. لتفاجئها ابنة "نهى" بصوت أرهقه البكاء.. أن أمها ترقد في غيبوبة سكركاملة في المستشفى، لتجري "رهف" إليها خائفة.. وتَشعُر أن عَجَلة الأيام التي لا تقف لأحد ستأخُذ معها أَحداً، لتَجِد "نهى" الغالية ما بين الحياة، والموت.

بعد عدة ساعات..

كانت الساعات تمرثقال، مع آتيان جميع الأهل، والأحبة بمن فيهم "هنى" وزوجها الطيب، ليمرشريط الذكريات المُحّمل بكل الود، والمحبة.. مستدعياً كل أوقاتهم الطيبة معا، وكل الدعوات التي تحملها قلوبهم بالخيرللجميع، والشفاء للحبيبة "نهى".. مستحلفين الأيام أن تتلطف بهم.

إلى أن مَنَّ الله بفضله بإفاقة "نهى"، ونجاتها من غيبوبة سكر عنيفة كان يصحبها ارتفاع بضغط الدم.

بعد مرور ستة أشهر..

تتوالى الأوجاع لتمرض أخت "نهى" بمرض خطير. تأتي "نهى" على غير موعد كما اعتادت إلى منزل "رهف".. لتخبرها بأنها اتخذت قرارها بالسفر مع أختها لأداء العمرة بطريق النقل البري.. لأنهم أنفقوا على العملية ما يَفوق طاقتهم من المال، وهي تُريد أن تُسعد أختها، تَيمناً بحلول بركة الشفاء التام.

تحاول "رهف" جاهدة إثناءها عن الفكرة، لأنها تعلم مدى مشقة السفر البري عليها كمريضة سكر، وبخاصة بعد تلك الغيبوبة التي عانتها، وخرجت منها بسلام.

لكنها تُصر وتُسافر. فهل كانت حقا أقدارها تناديها لترحل نهائياً، وتسافر إلى السماء.. وتستقر بجوار الصُحبة الطيبة.. لصحابة الحبيب، وتدفن بالأرض الطيبة.

دفنت "نهى" بأرض البقيع التي تضم صحابة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، لتعود أختها المريضة بالمرض الخطير سالمة.. وتموت نهى.

ولا نملك إلا التسليم بقضاء الله، وأنها مشيئة أقداره.

أما إرادة الإنسان فكان لها شأن آخر.. إذ أبت تلك الإرادة الوفاء، ليتزوج زوج "نهى" بعد وفاتها بأشهر؛ بحجج منتهية الصلاحية كأيامه التي كانت معها.. فهذا الزوج لم يكن يطيق أن يتواجد في البيت طوال العام.. فهو يعمل بالتدريس ويعطي كل وقته للدروس الخصوصية، ليسافر من بعد ذلك، وأولادهما بفترة الطفولة لدولة عربية، ويتركها وحيدة، منشغلة بهموم ومسئوليات أولادهما التي كانت لا تنتهي.

غريب أنت أيها الإنسان.. حين توجع أطفالك ببعدك، مختارا وهم صغار، ثم تصر أن توجعهم باليتم وهم كبار، وأنت بينهم غريب، متزوج بغريبة أخرى، بذات البيت الجديد، الذي تَعِبَتْ على فرشه بالأثاث الجديد أمهم، ولم تهنأ به، ولا بك.

لن ننكر حق الرجل في الزواج من بعد وفاة الزوجة.. لكن أليس الوفاء ولو بالصبر لبعض الوقت، وتهيئة الأجواء للأولاد أيضا حقاً من الحقوق الملزمة.

بعد مرور عام..

مرضت "هنى" في فترة وجيزة من بعد وفاة "نهى"، لتتوالى صفعات الزمن الموجعة على وجه الجميع، خاصة زوجها الوفي الذي يمكث إلى الآن وحيداً على أطلال الوفاء منذ وفاتها هي الأخرى، لتجد "رهف" نفسها تفتقدهما في أعوام متتالية.. ليأخذها الحزن، ويتركها على طرقات الحنين، حيث كن لأكثر من خمسة عشر عاماً يبتن، ويصبحن على أنفاس الود.

لتحادث نفسها وتتساءل في حيرة: أكانت فرقتنا كجيران، وانتقال كل واحدة منا لسكن يباعد بيننا إلى حد ما.. كفيلاً بأن يخفف وجع قلبي عليها.. أم أن كل ذلك حدث كي لا أرى يوماً ما شقة إحداهما مغلقة أمام عيني.. لأن الأبواب لن تفتح لي ثانية! أو لأنني لن أعود لاستقبالهما ثانية بشقتي مرات ومرات، لنرتشف القهوة الصباحية أياماً وأياماً كما كنا طيلة سنوات، ونتبادل القفشات، وحلو الكلمات.

لأبقى أنا هنا مع الأيام بنصيب لا بأس به من وجع الفراق، ونصيب آخر من تقلبات الأيام بشكل أو بآخر، ليخبرنا الزمان أنه لم يعد كما كان، وأن طبعه قد تغير.. فتغيرت الجيرة، وتغير طبع الأهل، والخلان، أم أنه كان يعتاد الغدر خِلسة دون أن نراه!، وهذا هو الأكيد.. إذن فلا اندهاشه بالغياب، ولا اندهاشه حين يروق للبعض الرحيل.

غيرة نسائية

دينا أبو الوفا

لم يتعد انضمامها لفريق العمل بتلك الشركة الهندسية العالمية الثلاثة أشهر، إلا أنها تأثرت تأثراً شديداً بالأحداث التي طرأت على مدار الأسبوع الماضي.

قد يظن البعض أن بضعة أشهر، فترة زمنية غير كافية ليتعلق فيها أي شخص بشخص آخر، لا سيما أن يتعلق به تعلقاً جارفاً، ولكن هكذا كانت "نهال" تختلف كثيراً في طباعها عمن حولها وتخرج عن حدود المعتاد والمتعارف عليه بين الناس. فكانت دائمة التعلق بالأشياء، بالأماكن، بالأشخاص، بالمشاعر والأحاسيس الإنسانية تجاه الآخرين.. صفة لازمتها طوال سنوات عمرها الأربعة والأربعين.

كانت مرهفة الحس، حتى أن أقرب المقربين إليها تحيروا طويلاً في أمرها، فكلما أقسموا بأن نسمة الهواء إن مرت بها، قد تجرحها جرحاً لا يبرأ، كانت تفاجئهم وتعادل هذه الحساسية بقدر وافر من القوة والصلابة.

كانوا يرونها حالمة رقيقة كالريشة المتطايرة في الهواء، تعلو تارة.. تهبط تارة، ثم لا تلبث أن تعود وتعلو وتسبح في الفضاء إلى ما لا نهاية، لكنها سرعان ما كانت تخيب تقديراتهم، لتقف منتصبة جادة على أرض الواقع كلما لزم الأمر ذلك.

كانت شخصية اجتماعية جذابة، تترك جميع المحيطين بها في حالة من الاندهاش والتساؤل: كيف لها أن تجذب إليها عن طيب خاطر، كل من يقترب من محيط دائرتها، دون أدنى مجهود متعمد منها، كما يجذب المغناطيس قطع الحديد إلى سطحه!؟

وكيف أنها بيسر أكبر، تلفظ بعيداً بلا رحمة كل من تسول له نفسه أن يسيء إليها؟

خطت أولى خطواتها داخل تلك الشركة الواقعة بحي المهندسين، منذ ثلاثة أشهر لتنضم إلى مجموعة صغيِّرة من المهندسين، ترأسه مهندسة في أواخر العقد الخامس من العمر، وبالرغم من أن "نهال" كانت قد تعرفت على "هدى" من قبل من خلال عدة إنترفيوهات، مرت بها، وبالرغم من كونها هي شخصياً امرأة، فإنها كانت تتوجس خيفة كوّن رئيستها امرأة.

لم تكن تلك الرهبة نابعة من عدم الثقة في قدرة امرأة على تحمل عمل شاق، بل وإدارة قسم مهم بشركة أجنبية، تماماً كما يؤمن أغلب الرجال بذلك الفكر النمطي الرجعي، بل كان مصدر تخوفها إزاء امرأة ترأس امرأة أخرى، تجاربها السابقة بهذا الشأن التي لم تكن خير مثال ولَم تترك بداخلها أية طمأنينة.

تذكرت كيف كان الحال على مدار الخمسة أعوام السابقة.. كيف أن صغر سنها، مقارنة بمديرتها التي كانت تكبرها بأحد عشر عاماً، وأناقتها، التي شهد بها الجميع، في ارتداء الحجاب وجاذبية شخصيتها واستيطانها السلمي لقلوب الجميع، واستحواذها على احترامهم، وحرفيتها وكفاءتها في العمل، كانوا جميعاً الوقود الذي أشعل نيران الغيرة النسائية بقلب مديرتها، فاحترقت بها "نهال" يوماً بعد يوم، شهراً تلو الآخر.

عاودتها ذكرياتها مع الباشمهندسة "ماجدة"، والتي كانت، وبالرغم من بلوغها الخمسين عاماً، تهتم اهتماماً بالغاً بمظهرها الخارجي. لا تزال "نهال" تتذكرها ببشرتها الخمرية وقامتها المتوسطة وجسدها الممتلئ قليلاً، ذلك الامتلاء الذي يلقى استحساناً كبيراً من قبل الرجال المصريين، وشعرها الخفيف المنسدل حتى كتفيها، المصبوغ "بلون أشقر".... ناهيك عن بعض الخصلات البيضاء البسيطة التي كانت تختبئ هنا وهناك بين الشعيرات الملونة، فتظهر خلسة كلما مررت "ماجدة " أصابعها بين خصلات شعرها، لتكشف المستور!!!

كانت عيناها ضيقتين حادتين، تنطلق منهما نظرات ثاقبة يملأها الحقد والغل، حتى أن المشهد الكرتوني للساحرة الشريرة والمسكينة "سنوايت" كان يتراءى ل"نهال" كلما نظرت ماجدة باتجاهها!!، أما الابتسامة المفتعلة التي كانت تهديها إياها بين الحين والآخر، فلم تنخدع بها "نهال" للحظة واحدة... كانت تلك أيضا أحد الملكات التي تحظى بها.. كانت تجيد القراءة بين السطور، وتبرع في الكشف عما يكنه الآخرون لها من مشاعر سوداوية قابعة داخل أغلفة براقة زائفة.

اعتادت "ماجدة" التألق والتأنق، فكانت ترتدي كل ما يضاعف من أنوثتها.... فساتين وجيبات قصيرة وأحذية ذات كعوب عالية مدببة وما إلى ذلك.

وكانت "نهال" تحرص بين الحين والآخر، على الإشادة بأناقتها وهيئتها، ليس تملقاً ونفاقاً، بل كان تصرفاً نابعاً في المقام الأول من ثقتها بنفسها، فمن يثق بنفسه يسهل عليه الإقرار بمزايا الآخرين، والعكس صحيح. وقدرة عينيها

في أن تلمح كل جميل وتغض البصر عن كل ما هو قبيح، وحرصها الدائم على إضفاء السعادة والبهجة على المحيطين بها، هما الدافع الرئيسي وراء مداومتها إطلاق عبارات الإعجاب والإطراء على كل من حولها، بمن فيهم ماجدة، حتى وإن كانت لا تبادلها نفس الشعور!!

وعلى الرغم من هذا، كانت "ماجدة" تغار منها غيرة جلية بائنة للجميع.. حتى أنها ذات مرة أخفقت في كبت مشاعرها الدفينة حين حدثتها أمام الجميع داخل اجتماع متسائلة بنبرة تكسوها السخرية:

- "هي الناس كلها بتحبك كده ليه وعلى إيه مش فاهمة!؟... مع إن فيكي حاجات كتير لازم تتصلح وتشتغلي عليها.... أولها إنك جد أوي في شغلك، قطر ماشي مبيتفاهمش".

اختتمت هذا الهجوم الحاد بضحكة عالية ربما لتضفى عليه روح الدعابة... لكن هيهات.. فقد ساد الصمت بين الحاضرين، أنهاه أحدهم معقباً:

- "نهال" مفيهاش عيب واحد ومثل عالي وقدوة لينا كلنا... يا ريتنا نبقى زيها".

أضفت تلك الإجابة الوافية هالة من الغضب والشحوب على وجه مديرتها فاستطردت:

- "يااااه قدوة مرة واحدة... طيب يا سيدي".

لم كل هذا!؟ سؤال لم تجد له "نهال" إجابة مقنعة منطقية حتى يومها هذا.. حتى ساورها الشك في أن السبب وراء ذلك قد يكمن في المثل القائل "العين متكرهش إلا اللي أحسن منها"، فعادت بسرعة لتطرد تلك الفكرة الساذجة المتغطرسة من بالها، فهي على يقين أنها ليست أفضل من أحد، لا

سيما مديرتها... ولكن هل توافقها مديرتها الرأي؟ ربما تراها أفضل منها، ولهذا تكن لها هذا القدر الكبير من البغض.. فتعود "نهال" لترد على نفسها قائلة:

- "أحسن منها في إيه بس.؟.. دي ست زي القمر وشيك وناجحة ومنصبها كبير... آجي جنبها إيه؟ وبعدين افتراضاً إنها شايفاني أحسن منها ليه تكرهني!؟.... العين المريضة بس هي اللي تكره الأحسن منها... ده بالعكس اللي قلبه صافي وأبيض يحب اللي أحسن منه ويسعى إنه يكون زيه وياخد منه حاجة حلوة".

مرت الأيام والشهور والسنون و"ماجدة " تنهال بالثناء والتقدير على كل مهندس تحت رئاستها حتى وإن لم يقم بعمل جليل يستحق عليه ذلك، أما "نهال" فلم تحظ يوماً منها بكلمة تشجيع أو شكر واحدة على مجهودها في العمل، بالرغم من أنها كانت أول من يحضر صباحاً إلى الشركة وأخر من ينصرف مساء، وكانت المشاريع التي تديرها من أنجح المشاريع، فتدر على الشركة أرباحاً كثيرة وتكسبها سمعة طيبة بين العملاء والشركات الأخرى.

كانت تقابل كل هذا النجاح ببرود وفتور ولا مبالاة، كأن شيئاً لم يكن.. مما جعل "نهال" تفقد شهيتها للعمل يوماً بعد يوم، وينضب حماسها رويداً رويداً وترحل عنها كل رغبة في النجاح دون رجعة... لم تجد سبباً واحداً يجعلها "تنفخ في إربة مقطوعة" كما يقولون.. فاكتفت بهذا القدر وتركت العمل.. لم يكن ضعفاً أو استسلاماً، لأنها قاومت لأعوام طويلة، بل كان قراراً بأن تدير ظهرها لكل ما يستنفد طاقتها ويستهلكها.... كان رحيلاً لإنقاذ ما تبقى لها منها... من "نهال" المحاربة... فبعض المعارك لا تستحق أن نخوضها وندفع راحة بالنا وسلامنا النفسي ثمناً لها.

ظلت جليسة منزلها قرابة ثلاثة أشهر، استعادت خلالها طاقتها الإيجابية، التي كانت قد استنفدت لأخر قطرة، وضحكتها، التي كانت قد نسيت نغمتها، ونضارتها وصحتها النفسية والجسمانية.. اجتازت خلالها كل الإنترفيوهات المحددة لها في الشركة الجديدة حتى ظفرت بالوظيفة، ومنذ الْيَوْمَ الأول، بدا الفرق واضحاً بين ما شهدته في السابق وما هي على وشك معايشته!!!

كانت "هدى" مديرتها الجديدة تختلف كلياً وجزئياً عن "ماجدة"، اختلاف النهارعن الليل... كانت امرأة هادئة الطباع، ذات ابتسامة رقيقة وروح مرحة بسيطة، تخلو من التصنع والمبالغة.. ينسدل شعرها البني الأملس الغزير فيغطى ظهرها حتى منتصفه... ترتدي القليل من المساحيق، فتبدو كالملاك بنظرتها المحبة الحنونة.. وكأنها كانت تقرأ أفكار "نهال" وما يكمن بداخلها، أو كأن هناك من أطلعها على مخاوفها، فقد قامت منذ الْيَوْمَ الأول بأشياء أدخلت بها السكينة على قلبها، فقد دعت جميع المهندسين بالإدارة للعشاء في مطعم فخم على شرف "نهال".. لم يشغلها طوال الأسبوع الأول من تواجد "نهال" بالشركة، سوى الاطمئنان عليها والتأكد أن كل شيء يسير على ما يرام... فخصصت لها مكتباً خاصاً بها قبالة مكتبها، فكانت هذه أول مرة تحصل فيها "نهال" على مكتب خاص بها.

ظلت تطل عليها وتتردد على مكتبها:

-" هاااا يا "نهال"، مرتاحة معانا، عجبك مكتبك، في حاجة ناقصة نبعت نجيبهالك... لو احتجتي أي حاجه قوليلي على طول... إحنا مبسوطين جداً بوجودك معانا".

كانت لتلك الكلمات وقع السحر على "نهال".... فالاهتمام يأسر!!!

وعليه فلم تدخر "نهال" جهداً، فكانت تعمل بلا كلل أو ملل لساعات متأخرة دون أن تشعر بأي إرهاق أو تعب... وفى غضون شهرين كان قد بدا واضحاً للجميع احترافيتها وبراعتها في مجالها.. وكانت كلما أتمت عملاً ولو بسيطاً هيناً كانت "هدى" تغدق عليها بعبارات الشكر والتقدير:

- "هايلة يا "نهال".... بجد إنتي رائعة... كنتي فين من زمان؟... الله ينور.... تسلم إيدك...".

وكلما أكثرت هدى من المديح، زادتها "نهال" اجتهاداً وتفانياً وإخلاصا، فمن يزرع بذور التقدير، يحصد ثمار العطاء.

تهيأ ل"نهال" أن كل شيء يسير على خير ما يرام، فهدأت نفسها واستقرت، إلى أن بدأت الشائعات تنتشر حول ترك "هدى" العمل بالشركة دون أن يعرف أحد الأسباب وراء ذلك!!.. استعصى على الجميع استيعاب خبر كهذا، فبينما لم تعاشرها "نهال" سوى ثلاثة أشهر؛ عاشرها الآخرون لسنوات طويلة، فوقع عليهم الخبر كالصاعقة الكهربائية، تاركة إياهم طرحى الأرض بلا حراك.. حتى دعتهم "هدى" لمكتبها ذات صباح دون سابق ترتيب، فالتفوا جميعاً حول طاولة الاجتماعات، مطأطئين رؤوسهم في الأرض في انتظار الخبر المشئوم

وقفت أمامهم جميعاً، ترسم على شفتيها ابتسامة عجزت عن طمس ملامح الحزن والخيبة التي كست وجهها، تحتضن بين يديها كوب النسكافيه الذي اعتادت تناوله.. لمحت "نهال" يديها ترتجف حول الكوب، فأشفقت عليها من هول الموقف ومشقته.

-"إزيكم؟... إيه مالكم؟... في إيه؟.... عاملين كده ليه...؟".

بالكاد كان صوتها ظاهراً... بل كان خافتاً ضعيفاً.

-"أنا جمعتكم النهارده عشان أبلغكم إني إن شاء الله مش هكون معاكم من أول الشهر، والأسبوع ده هيكون آخر أسبوع ليه في الشركة.... إنتم فريق عمل رائع، وأتمنى أسمع عنكم كل خير ودايماً ناجحين ورافعين راسى حتى لو مش معاكم".

رفع الجميع رؤوسهم نحوها، فاغرورقت عيناها بالدموع وانفلتت منهما دمعة لؤلؤية تلتها أخرى.. منهم من بكى بكاءً حاراً، ومنهم من استنكر الخبر وكذَّبه بشدة، ومنهم من التزم الصمت وكأن اللغة العربية بحروفها وكلماتها ومفرداتها قد نضبت، فلم يعد هناك ما يقال!؟

أما "نهال" فظلت تنظر إليها مباشرة وعلقت:

- "لو الفريق ده قوى فده لإن مديرته قوية.. إنتي مش بس مديرة إنتي قائدة.... وطلعتى من كل واحد فينا أجمل وأحلي ما فيه... مش أي حد يقدر يعمل ده".

كانت كلمات صادقة نابعة من القلب...

مر الأسبوع بخطوات ثقيلة متكاسلة كئيبة... بالكاد أنجز أي منهم أي شيء من الأعمال أو المشاريع العالقة لديه.. كأنهم مجموعة من الشموع وقد انطفأ لهبها بعدما نفخ أحدهم فيها بغتة.. كانوا كلما دخلوا عليها مكتبها، وجدوها تفرغ مكتبها من مقتنياتها ومتعلقاتها... لوحتان على الجدار خلف مكتبها كانت قد اشترتهما من رحلة عمل بباريس... بونبونيرة كريستال على طاولة بجانب مكتبها كانت تملأها دوماً بالشيكولاتة.... إطارات خشبية تضم صور عائلتها ومرؤوسيها في العمل... تذكارات متناثرة فوق سطح المكتب... تلك علبة خشبية

مزخرفة أهداها إياها أحد زملائها... وتلك أقلام ثمينة أهداها زوجها لها حين تولت منصبها كمديرة.

كانت العلب الكارتون ملقاة على الأرض داخل مكتبها، تنتظر استقبال كل تلك المقتنيات كي تحتويها بين أحضانها، لعلها تخفف عنها وحشة الغربة بعيداً عن موطنها، وكانت "نهال" تحدث نفسها: "ربما تستطيع هدى أن تغلف مقتنياتها المادية ببساطة وترحل بها أينما رحلت.... ولكن كيف ترحل بذكريات ثلاثة أعوام كاملة، كيف تغلفها داخل علبة!؟.. كيف تجمع تحديات مرت بها واجتازتها بعدما شهدت عليها جدران المكان!؟... كيف تحشد مناقشات ومفاوضات دارت وتناثرت كلماتها في أرجاء تلك الغرفة!؟.. كيف تلملم دعابات وضحكات انطلقت هنا وهناك، ورقصت على أنغامها الجدران الأربع؟.... كيف!؟.

حتى كان الْيَوْمَ الأخير لهدى بالمكتب، لم يقو أحد على الحضور، بل ودعها الجميع في الْيَوْمَ السابق في حفل أقاموه لها في مطعمها المفضل.... إلا "نهال" فقد حضرت لتقضي بجانبها ساعاتها الأخيرة... فكيف يُترك المحتضر ليرحل عن الدنيا دون جليس أو أنيس!؟

ظلت تسترق النظر من خلف الجدار نصف الزجاجي، الذي يفصل مكتبها عن الممر، كي تطمئن عليها.... فلمحتها تجلس على مقعدها شاردة، تلمس بيديها مكتبها الماهوجني تارة.... ثم لمحتها مرة أخرى تقف عند النافذة تطل بنظرها إلى الخارج... ثم لمحتها مرة ثالثة تتجول بالغرفة ذهاباً وإياباً.

"لحظات عصيبة دون شك"، حدثت "نهال" نفسها وعادت لتجلس بمكتبها تنتظر رحيل "هدى".. وما أن أشارت عقارب الساعة إلى الخامسة مساء، حتى طرقت عليها "هدى" الباب ثم دخلت:

-"نهال"... أنا لقيت الحاجات دي وعايزاكي تاخديها.... شوية نوت وأقلام... اعتبريها تذكار مني".

وابتسمت ابتسامة هادئة كمن يستسلم أخيراً لملك الموت.

-"إنتي شاطرة يا "نهال" وهتعملي شغل كويس وهتكبري وتلمعي في الشركة دي... صدقيني".

-"تسلمي يا هدى... أنا يمكن مشتغلتش معاكي غير فترة صغيرة بس كان ليكي تأثير كبير عليه بشكل لا تتخيليه... إنتي مديرة وقائدة من الدرجة الأولى... عندك قدرة رهيبة إنك تحسسي كل اللي حواليكي بقيمته الكبيرة.... أتمنى أكون زيك في يوم من الأيام".

-"هتكوني أحسن مني... مهما حصل أوعي تخسري روحك المرحة وطاقتك الإيجابية... دول أكتر حاجة بتميزك".

فابتسمت "نهال":

-"وإنتي يا هدى أوعي تنسي إن ربنا بيكتب لنا الخير دايما، حتى لو مش شايفين ده في وقتها... هييجي يوم نعرف إنه كان عنده خطة أروع بكتير من الخطة اللي في بالنا".

-"صح حبيبتي.. خدي بالك من نفسك".

-"حاضر...".

قَبَّلت "نهال" ثم أدارت لها ظهرها، ووقفت تنظر لباب مكتبها، ومكتبها المظلم للمرة الأخيرة، ثم أخذت نفساً عميقاً وانطلقت تدق قدماها الأرض نحو مرحلة جديدة وفصل آخر من فصول حياتها.

شباب ٨٦

جيهان جمال

قد تفرض عليك تداعيات تقلبات البشر أن تأخذ لنفسك أَحياناً مقعداً بين.. بين. بمعنى أنك قَد تستريح جداً وأنت تُصاحب هدوئك المُفتقد، وأحياناً يستهويك أن تُطبطب على روحك في روعة حضرة الغياب.. فترى كل الأشياء على حقيقتها، وأحيانا أخرى تضطرك الظروف للخروج من شرنقة سلامك النفسي لتفتح زاوية قلبك، ومداد روحك غالباً لمن يستحق وفقط!

ديسمبر الماضي..

وقت الغروب..

ألمح سيدة تهذي بكلمات لا أفهمها، وملامح وجهها مازالت تحمل بعضاً من إشراقة شمس المغيب، في يدها حقيبة نصفها ملقى على الأرض، والنصف الآخر لم تَزل مُطبقة عليه، وكَأنه الباقي من أيامها التي تَخشى فرارها من بين يَديها، هاتين اليدين التي ارتسم على خطوطهما زَمن يكاد أن يُوشك هو الآخر على المَغيب.

تلهث وراء شيء يبدو أنها افتقدته وسط النجيل الأخضر الذي ينام بأريحية على جانبي مدخل العمارة التي أقطن بها.. وأَظن أن تلك السيدة تُشاركني الحِيرة.

اقتربت منها أنا وابنتي رغم تَعجُلنا! فقد كنا على موعد مهم مع الطبيب، وموعدنا بالفعل كان قد اقترب جداً.. لكننا لا نستطيع أن نتركها بتلك الحالة!، اقتربنا منها

لنجدها سيدة مُسنة.. تبكي بهدوء تارة، ثم تثور على نفسها تارة أخرى، وتقول: لقد فَقدت مفتاح الشقة، ثم قالت أنه سقط منها تَواً ولا تدري أين!؟

فقلت لها اهدئي.. سَنَجده سَوياً بإذن الله.

فثارت مَلامحها الهادئة مرة أخرى لكن هذه المَرة كَانت ثَورتها في تَكتُم لطيف، وألقت بحقيبتها على الأرض كَي تَتخلص من شُحنة الغضب التي بَدت على كُل إيماءة تَفر منها مع كُل حَديث، أولفتة لا إرادية، كان يَشي بها لنا جَسدها النَحيل، وطالبتني بأن أبحث عن المفتاح داخل الحقيبة التي أَلقتها على الأرض.

فاندهشت ولفني الخجل، وابنتي تنظر باندهاشة وحيرة لأجلى ولأجلها، ثم تقطع حيرتنا وتقول بعصبية إن طَائرتها إلى أمريكا مَوعدها فجرًا، وأن كل شيء يَخُص سَفرها بِأوراقها بداخل الشقة، وأنه لم يتبق سوى وقت قليل جدا، وأن ابنها لن يَحضر ليصطحبها سوى على موعد الطائرة!.

اندهشت أكثر، وأنا أرى أمامي سيدة عجوزا شَاخ كُل مَا فيها، وقد يَفوق عُمرها أكثر مما تَخيلت قَبل أن أَقترب مِنها وأراها بدقة، لكن وجهها يُخبرني أن الجَمال لا يمكن له أبداً أن يَشيخ!.

ثم تجدني أنا وخيالي المصحوب بالدهشة ذائبين في هذا الجمال الذي يأبى أن يقال عنه إنه كان! أو أنه وَلىَ ورَحَل!، وأنا بين كُل هذا مُتحيرة جداً فيها.. ومنها، لأجدني مُقحمة إنسانيا رغم أنفي في عِدّة انشغالات، انشغالي الأول بموعد طبيب ابنتي المُهم جداً، وانشغالي الأَهم هو اضطراري للبحث الجَاد في حَقيبتها عن المفتاح كي أنزع عن نَفسي حِمل هَمها، ثم انشغالي بلملمة نقودها التي

تبعثرت حين طرحت الحقيبة أرضاً، ثم انشغالي الأدهى، والأَمَر بلملمة مشاعري للاحتفاظ بهدوئي أثناء نَحِيبها الذي لا ينتهي، والمُمتزج بدموع تدغدغ معظم حروف كلماتها، فَتسقط المعاني ولا أَستطيع أن أُترجِم سوى أنها في أَشد حَالات التوتر، وأنا معها.

ثُم بالكَاد أُلملم جُملة مُحملة منها بحروف ممتزجة بحُرقة النَدم، لأفيق أنا على صوتها الذي أرهَقه النحيب، فاكتسى بوداعة الأُنثى، وهي تَهمس مع نَفسها: "ليتني ما ذهبت للكوافير".. فأُعجب بها أكثر، لَكن دونما إِفصَاح!

٢

يزداد إعجابي حين تكتشف عيوني حجابها الوقور!، وقبل أن أبدأ في مُداعبتها لتهدأ بَعض الشيء تأتي" نور" بالمفتاح.

الغالية نور ابنتي، ذهبت لتَبحث عن المفتاح في كُل الحديقة، فوضعه الله في طريقها إكراماً لِتلك المُسنة المسكينة، وإكراما لنا كي نَلحق بِمَوعِد الطَبيب المهم، وإذ بالجميلة الأُخرى صاحبة المفتاح تهدأ، ثُم تبتسم وتشكرنا، وأنا لا يطاوعني قلبي على تركها في تلك الحالة، ويؤسفني أني لن أقدر، لظروفي المتعجلة جداً، أن أُدخلها منزلها، فتطوعت كعادتي، ووجدت إنسانيتي تطرق جرس شقة مجاورة لها.. تَفتح صَاحبة الشقة الباب؛ فإذا بي أقف أمام سيدة رقيقة يَغلب عليها هدوء حَزين رغم ابتسامتها، أُبادلها الابتسام من بعد السلام، ثم أستأذنها على استحياء، مع الاعتذار اللطيف، لتطفلي الواجب إنسانياً، على أن ترافقها إلى شقتها، وتَفتحها معها كي تهدأ. ومضيت أنا ونور لنلحق بموعد الطبيب.

وظللت طيلة أربعة أشهر وأثناء خروجاتي القليلة جداً، وقبل أن استقل السيارة.. انظر إلى حديقتها وشقتها، وقد تركت هي كل شيء كما هو، وتركتني لإحساسي المشغول بها، حتى أنني كنت أراها بخيال قلبي، وكأنها تَكاد تَكون داخل الشقة!

بعد مضي شهرين

مضى شهران على سفرها، كنت أرى شابين بالحديقة، وأسمع صوتها، وكأنه يأتيهم من الداخل فعرفت أنها عَادت، لكني مُتحرجة جداً أن أقتحم خصوصيتها، وأَسأل عَنها ظناً مني أنهما أولادها، ويَكفيها وجُدوهما!.

الأسبوع الأول من شهر رمضان الكريم..

كُنا خارج المنزل نَتناول الفُطور، وفي أثناء العودة توقفت قَليلاً حِين وجدتها، كانت تقف على مدخل العمارة، رأيت ملاكاً.. ترتدي الإسدال الأبيض، ومستندة على عكازها، أَظُنها تنتظر شيئا.. أَقبلت عليها وبَادرتها بالسلام، فَردت السلام بعَفوية ذائبة في قُبلات المَحبة. فقلت في نفسي إنها تذكرتني وعرفتني، لكنها فاجأتني بسؤال:

أتسكنين معنا!؟

فقلت أنا التي كنت معكِ يوم ضياع المفتاح الخاص بشقتك، وهذه نور ابنتي التي أحضرته لكِ. فتبسمت بوجهها الذي مازال يأبى أن تتركه مساحات الجمال!:

لاااا أتذكر أي شيء.. أنا ذاهبة لصلاة التراويح.

وذكرت اسمين، مِنْهُما اسم لرجل، والآخر لامرأة، لا أتذكرهما للأسف بعدما تركتها بدقائق لشدة انشغالي بها!.

أَندهش لانشغالي هذا، رغم أنه ليس لي علاقة بأحد من السُكان على الإطلاق!، ثم استرسلت هي بالحديث، وأنا أسمعها باهتمام المُحبّين، هي تتحدث بسعادة عن اهتمام جيرانها بها فتقول: هم جيران بالعمارة المجاورة، ولا يذهبون لصلاة التراويح من دوني!.

وهنا استوقفني ما صرنا إليه جميعاً، أإلى هذا الحَد صِرنا في زمن البعيد هو القريب!، وأن روعة التواجد لبعض البشر في حضرة الغياب صارت أرقي وأنقي!.

وتذكرت شعوري بالحرج يوم استدعيت جارتها لتدخلها الشقة، وتلك الاندهاشة التي كانت على وجه السيدة الرقيقة، وكأنني جئتها من كوكب آخر.

٣

أتذكر أيضاً المرحومة أمي، حين كانت تسمع المطرب مدحت صالح في أغنيته الشهيرة "كوكب تاني"، ثم تضحك بخفة ظلها المعهودة، وتقول، كأي أم لا ترى عيون قلبها سوى أن ابنتها أطيب الكائنات:

على فكرة الأغنية دي مكتوبة عشانك!

فيهمس الابتسام بين طيات روحي!، وأترحم على أمي التي تَصغر تلك الجميلة بكثير.. لكن الأعماربيد الله. أما الجميلة شباب ٨٦ فمازالت مسترسلة بالحديث، فتقول:

تركني وليد ابني وسافر لعمله وحياته.

ودونما أن أجرحها، وأسأل عن أشياء لا دخل لي فيها، فهمت أيضاً أننا في زمن الأنانية المفرطة، فودعتها، وقبلناها أنا ونور، وهي تقول بمنتهي البساطة والطيبة التي اندثرت:

إبئوا إسألوا عليا ياولاد.

فوعدتها، وألقينا السلام.

ثم مع ثاني خروجاتي في رمضان بعد مضي أسبوع، وأثناء نزولي، إذ بي أَدق عليها الجرس الخاص بشقتها، ففتحت مبتسمة، وتأكدت أنا أنها تعرفني هذه المرة، ثم هاهي تُلح على بالدخول، وتطلب مني أن أتحمل ضيق مدخل الباب، وتعتذر لأنها

كانت تريد أن تغلق هذا الباب بالثلاجة اليوم، وأنها مُنذ ساعات تحاول أن تُحرك الثلاجة لتُغلق هذا الباب، وتكتفي بباب الحديقة من الناحية الخَلفية لمدخل العمارة.

فقلت لها، وأنا أرى الثلاجة كادت أن تغلق الباب بالفعل، ولم يَتبق سوى جُزء بسيط إلى حد ما:

أساعدك؟.

فقالت: لا شكراً هاغيررأيي، وأتركه حتى تأتيني، وأراكِ.. لن أغلقه.

فا ابتسمت وداخلي اندهاشة، كيف لها بالمقدرة على تحريك الثلاجة كل تلك المسافةً، ثُم سَتُعيدها ثانية كما كانت، وأنا على يقين أنها قد شَغلت معظم ساعات يومها المتوقفة عن الحياة لتحريك تلك الثلاجة!!.

ومددت يدي بصعوبة وأعطيتها طبقاً به حلوى، كُنت قد أَعددته لها كي يُشعرها بالوَنس، ويذكرها بأيام الجيرة التي افتقدناها جميعاً، والتي من المؤكد أنها كانت تجد فيها من يُعينها على تحريك الثلاجة، ففرحت ثم قالت: إنتي اسمك إيه؟، فقلت لها: "چيهان"، وانصرفت من أمام الباب كي ألحق بموعدي، ونسيت أن أسألها عن اسمها، الآن فقط تذكرت أنه كان يجب أن أعرفه.

ومَر أسبوع آخر، وأثناء نزولي قبل الإفطارللحاق بالفطور عند ابني، وجدتها تلك المرة جميلة كما هي، ترتدي سويت شيرت، وبنطلونا، وتستوقفتني بالنداء:

"جيهان"، فأُقبلها، فتبتسم، وتقول: سألت عنكِ جيراننا، وقلت: ألا تَعرفون "جيهان".

أَتت لي وأحضرت طَبقاً به حلوى ذَكرني بأيام زمان الحلوة، لكن ومن وقتها لم أرها، بل حتى لا أعرف في أي دُور تسكن بالعمارة، لم يَعرف أحد إطلاقاً!

ودون أن أزعجها بالسؤال، فهمت أنها قد سألت هذين الطيبين اللذين يسكنان العمارة المجاورة ليأخُذاها لصلاة التراويح، لأنها ببساطة لا تعرف غيرهما أو بالأحرى لا يطمئن عليها غيرهما، ولا أعرف لماذا!؟، واستوعبت تلك المرة أيضاً أن نبينا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام

٤

قد أوصانا على سابع جار، حِينها أدركت أنهم من المُحتمل أن يَكونوا قريبين جداً، ومن الممكن أن يصيروا أَقرب من أول جار، ولا أَدري لماذا؟.. الله أعلم.

هي مازالت مُسترسلة في الحديث، فقالت: أنتظر عامل النقاشة.. أُريد دهان حُجرة النوم.

فابتسمت أكثر، وأُعجبت أكثر من روعة جَمال إحساسها، الذي يصر أن يفاجئني في كُل مَرة بشيء ما، فهي الجميلة كَما أَسميتها أنا، وهاهي لا زالت مُستمتعة بألوان الحياة.

قُمْت بوداعها، وأنا مازِلت واقفة على الباب، وهي تُصر أن أدخل، فأعتذر أنا، ثم أحييها وأنصرف.

ويصحبني التفاؤل المُحَمَّلُ بالكثير من الإعجاب عن تلك الجميلة التي تجاوزت كما أخبرتني ٨٦ عاماً، ومازالت تمتلك إحساسا رائعا للعزف على شجن الأيام، والإقبال على الحياة. والأروع هو شعورها أنها لم تَزل امرأة، ولا تزال ربة منزل، وَتُدير حياتها بنفسها غير مُعتمدة على أحد، فهي تَستعد لِطلاء حُجرة نومها.

أعرف أنها رُبما يُصاحبها الألم بحُكم السن، ويصطحِبها الأسى بحكم ظروف وحدتها، لكنها لا تعلم أني مثلها رَغم ظروف كُثر، رُبما تَكون قد أطاحت ببعض منى إلا أنني مازلت مُحبة لألوان الحياة مهما بالغت الأيام في قتامتها، ولا تعلم أنني منذ صغرى وأنا أحب صحبة الكبار، وأنا الآن على العتبة الثانية للعقد

الخمسين من عمري!، وكُلما انفرطت حَبات العقد يأخذني الحنين وأتذكر أيامي الوردية من العام ٨٦، وكأن هذا الرقم (٨٦) بمثابة خيط رفيع من الحرير يربطني بها، ويربط عقد الياسمين، ويسأل عن أي سر هذا الذي يشدني لذكريات شبابي، والذي ما ظننت أو تَشككت للحظة أنه وَليَ، فَمازال يحتل مساحات نَضرة بالقلب، وأيام العُمر الذي أتمني أن يَكون القادم منه أَجمل، وكلي أمل لو كتب الله لي العُمر أن أصير مثلها شباباً حتى الـ ٨٦، فهذا الرقم يجذبني إليها أكثر، وأكثر لاعتزازي بهذا العام، وتلك المرحلة وقتها كنت في الثالثة والعشرين من العمر، وكنت أماً لابني الأكبر الغالي ذي الثلاث سَنوات وقتها "كريم".

وفى ذات العام ٨٦ رزقي بالغالية "نور"، وكان نصيبي أيضاً من رزق جميل آخر لجيرة طيبة لن أعوضها ما حييت، ولكني رغم كُل هذه المتغيرات للزمان والمكان، فإنني بنفس الشعور الذي لمسته فيها، أؤكد أننا نستحق أن نرى الوجه المشرق للحياة. تحياتي لها ولجيراني ولأصدقائي، ولكبار العُمر والقامة والخبرة والمشاعر الملونة بالدفء النبيل. وأتمنى، وأتمنى، وأتمنى، ولا تَكثُر على الله الأُمنيات لو قُدِّر لي وأعطاني العمر أن أبقي مثلها شباب ٨٦.

ولشباب ٨٦ عودة

كلما اقتربت من رحيق حكاياهم أدركت إجابة سؤال ظل يحيرني منذ طفولتي.. لماذا أحب جوارهم، ولا أمِل من حديثي معهم، رحم الله من رحل منهم، وأعطي العُمر لمن بوجودهم تشملنا الرحمة، وبركة الأيام.. ويشاركهم محبة القلب، وغلاوة الشعور، وسعادة اللحظات كتلك التي تجمعني بالأطفال، لأنهم ببساطة

يعطونك أشياء لا يمكن لغيرهم منحك إياها كإخلاص عمق التجربة، وبراءة ونعومة اللحظات.

جمعتني بها الأيام مرة أخرى من بعد فترة طويلة فجذبتني للجلوس معها بحديقتها، وحدثتني عن شبابها، وأخرجت لي صوراً من ماضيها الجميل، الذي مازال يفوح جماله، وعطاؤه حتى عُمرها هذا، فيمدها قوة وثقة بأن ما تحملته منذ أكثر بقليل أو ما يقارب الـ٥٠ عاما منذ وفاة زوجها الذي كان من ضباط الثورة، ولولا ما حدث في فترة معينة من حكم عبد الناصر، لكان لحياتها كلها مسار آخر، ولكنها إرادة الله، بعدما نُقل زوجها من مركز مهم جداً بالجيش، فقد كان من الضباط الأحرار، انتدب للعمل بمكتب رئاسة الجمهورية على أثر وشاية ظالمة من أحد المقربين.

٥

لم يحتمل الصدمة، ولم يحتمل الحياة، فترك لها ٦ أولاد من البنين، والبنات، أكبرهم كان وقتها قد بلغ من العمر ١٥ عاماً، وهو الآن يفوق عمره الـ ٦٠ عاماً.

تسترسل، وتخرج ما في القلب من حكايات أمهات عظام، تحملن الحياة وحدهن بكل عِزة، وكرامة مستعينات بكنز الذكريات وقليل من مال، لكنهن لم يستسلمن، أو يركنن لغير الله حين مال بهن الزمان.

كانت تعيش في فيلا بمصر الجديدة بالإيجار، فتركتها وانتقلت بأولادها لشقة كبيرة أيضاً بالإيجار، أكملت فيها الحياة مع أولادها، ومرتب زوجها الذي كان يأتيها كل شهر با انتظام، وأحياناً دعوات خاصة رقيقة من رئاسة الجمهورية، حين يتميز أبناء البطل ويتفوقون. كل هذا كان يعينها، ويعطيها أملاً في غدٍ أفضل بإذن الله.

أغلقت كل الأبواب عليها، وعليهم رافضة الزواج، وهي التي تندرج من أصول صعيديةً للأب، وتركية من ناحية الأم، فمُنحت جينات الصلابة الذائبة في جمال ونعومة الشكل والروح.

وسارت أيامها تحتضن سنوات العطاء، ليتخرج من تحت جناحيها الطبيب والطبيبة والمهندس والمدرسة ومدرس الجامعة، وينطلقون في الحياة ويصيرون كبار القامة والعمر، لكن معها، هم كما هم في عيونها منذ رحل زوجها وحبيبها.

أما الأحفاد فهي لا تتذكر عددهم، ولا أسماء معظمهم ما شاء الله، ومنهم من كان حفل زفافه في أكبر فنادق القاهرة، والآخر كان في الإسكندرية.

تستوقفني ضحكتها الغارقة في حنين الذكرى، وهي تحدثني عن أن أحد أحفادها اختطف العروس من يديها، وقفز بها في "البيسين" وسط فرحتها بتصفيق كل الحضور.

أودعها بعدما قبلت رأسها، وأخبرتها أنها هي التي تستحق من الدنيا كل الفرح والتصفيق.

رسائل من السماء

دينا أبو الوفا

في مكتبها الفاخر، كانت علياء تمسك بأوراق مهمة، تحمل بين طياتها بياناً بأرباح وخسائر إحدى الشركات التي لها تعاملات مع شركتها، وبينما هي منهمكة في ذلك البيان، استسلم عقلها لذكريات الدراسة، وذهبت في رحلة للماضي حين كانت تدرس مادة "المالية"، فتذكرت تلك المعلومة.....

ففي عالم الأعمال ودنيا المؤسسات والشركات، يقاس النجاح بعدة مؤشرات مختلفة... أحد أهم تلك المؤشرات هو بيان الأرباح والخسائر، والذي يعتبر واحداً من أهم البيانات المالية للشركة، وتظهر إيرادات ونفقات الشركة خلال فترة معينة.

ويشير هذا البيان إلى كيفية تحويل الإيرادات، وهي الأموال المكتسبة من بيع المنتجات والخدمات قبل خصم النفقات، والمعروفة باسم "السطر العلوي"، إلى صافي الدخل، وهي القيمة النهائية بعد احتساب جميع المصروفات، المعروفة باسم "صافي الربح" أو "السطر الأدنى".

والغرض الأساسي من "بيان الدخل" هو إيضاح ما إذا كانت الشركة قد ربحت أو خسرت خلال فترة معينة، فكلما زادت قيمة الرقم في السطر الأخير بالموجب، دل على نجاح باهر، وكلما نقصت قيمة الرقم قل النجاح.... أما إذا تحول الرقم إلى قيمة سلبية، فهذا يشير إلى خسائر فادحة وعجز في الميزانية. ذلك العجز يجب تغطيته وتعويضه في الفترة الزمنية التالية.

ولأن "علياء" ومنذ نعومة أظافرها اشتهرت بين أفراد عائلتها وأصدقائها بشخصيتها العملية وعقليتها الحسابية، وكونها أيضاً درست إدارة أعمال ونجحت في جميع مواده الدراسية، بل تفوقت بالتحديد في مادة المالية؛ كانت تتابع نجاحها وتزن تفوقها في الحياة بنفس الطريقة.

ربما كان هذا هو السبب الرئيسي وراء عدم رضائها الكامل عن حياتها وبالأخص المهنية على مدى الخمسة أعوام الماضية.

فكلما انفردت بنفسها وجلست تحاورها وتحاسبها، وتملأ معها بيان أرباحها وخسائرها، وجدت أنه وبالرغم من أن السطر العلوي بدا دائماً للوهلة الأولى ذا قيمة كبيرة، فإنه عادة ما كان خادعاً مزيفاً،

فبعد طرحها لكل بنود ما تكبدته من عمل شاق ومجهود متواصل وما أنفقته من سنوات العمر في تفاني لا نهائي في سبيل تحقيق الذات، يمسى السطر الأدنى، وهو صافي ربحها، بلا قيمة تذكر وتواجه عجزاً تتساءل عما إذا كان بمقدورها تعويضه في المرحلة القادمة..

فتتوصل في النهاية إلى حقيقة تؤلمها وتوجعها كل مرة تجلس فيها لتعيد حساباتها، وهي أنها لم تربح شيئا، مما توقعته ولَم تنجح نجاحها المنشود بعد، وأن العجز يتسع ويتسع يوماً بعد يوم.... كيف ذلك!؟!

سؤال ظل يطرح نفسه عليها، أليس من المفترض أن تتناسب العلاقة بين الجهد المبذول والنجاح، تناسباً طردياً مباشراً!!؟ أي كلما استثمرت مجهوداً أكبر، نجحت أكثر!

فعلى تلك القاعدة تربت وترعرعت "من جدّ وجد، ومن زرع حصد"، كادت تجن، كادت تفقد صوابها من هذا التخبط وربما كان هذا هو السبب وراء ضيق صدرها ووجهها التعس، ومزاجها العكر في الآونة الأخيرة.

لقد اقتربت "علياء" من نهاية العقد الرابع من عمرها، ومع ذلك لم تصل إلى شيء مما تمنته ورمت إليه في حياتها المهنية... هكذا يكشف لها البيان.

لقد تخرجت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف.

تتذكر أنها لم تفعل شيئاً يذكر طوال الأربعة أعوام، وهي مدة الدراسة في تلك الكلية، سوى الاستذكار ثم الاستذكار ثم الاستذكار....

لم تكن الحياة تعنى لها سوى جد واجتهاد وعمل ومثابرة، بلا كلل أو ملل، بلا توقف أو راحة... حتى أنها استأنفت دراسة الماجستير فور أن أتيحت لها الفرصة لذلك.

لَم تلتفت يوماً إلى أن هناك وجهاً آخر للحياة، غفلت عنه، وكان يجب أن تعود لتنضم إلى أيامه ولياليه المتسربة من بين يديها في غفلة منها. درست ماجستير إدارة الأعمال شعبة المالية بالجامعة الأمريكية، وتفانت في الدراسة على مدى عامين كاملين، حتى تخرجت الأولى على دفعتها، على الرغم من أنها كانت زوجة وأماً لولدين توأم "على" و"عمر" وتعمل أيضاً بإحدى المؤسسات المالية الكبرى في مصر...

لكنها كانت لكل المحيطين بها، قدوة ومثلاً يحتذي به في إدارة الوقت وتنظيمه، والتخطيط السليم، والتعامل بحرفية مع المهام المتعددة، وترتيب الأولويات.

كانت طموحة ولَم يكن ليقف في طريق طموحها شيء، وأيضا لم يكن طموحها ليقف أمام حقيقة كونها زوجة عليها واجبات تجاه زوجها، وأولاد عليها رعايتهم وتربيتهم على أكمل وجه.

لم تشعر يوماً أنها تهاونت في حق عملها أو في حق بيتها... على الرغم من أن المهمة لم تكن سهلة على الإطلاق... بل كانت مضنية،

كانت أشبه بمن يسير على حبل رفيع مشدود بين قمة جبلين شاهقي الارتفاع، إحدى القمتين هي نقطة البداية، والأخرى هي طموحها وأحلامها أهدافها في الحياة، تحمل في يد مسئولياتها العائلية، وفى يدها الأخرى التزاماتها تجاه عملها.... فكان الحفاظ على التوازن والسير قدماً، مخاطرة جسيمة وتخطيها أشبه بالمعجزة في زمن ندرت فيه المعجزات!!

كانت ترى أغلب معارفها في نفس المجال، ممن هم في مثل عمرها، وقد وصلوا إلى مراكز أعلى منها بكثير، ومن هم أصغر سناً منها، وقد وصلوا إلى مراكز مماثلة لمركزها في مختلف الشركات والمؤسسات، على الرغم من أنهم لم يتفوقوا مثلها في الدراسة ولَم يحصل أحد منهم على أي شهادة دراسات عليا!!!

لم تكن تنظر إليهم بعين حاسدة، ولَم تشعر تجاههم بأي غيرة أو حقد.... لا لا... لم تكن تلك طباعها يوماً، فهي تتمنى الخير والتوفيق للجميع، وكلما كانت تداهمها وسوسات شيطانية تخالف طبيعتها، كانت تذكر نفسها بحديث رسول الله محمد- صَلى الله عليه وسلم-: "لا يُؤْمِن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

كانت تكتفي بأن تنظر لنفسها بعين متسائلة مندهشة: لم هذا التفاوت؟ وفيم أخطأت؟ وكيف أخفقت!؟

كانت تحدث نفسها:

"المشكلة مش فيهم، الغلطة مش عندهم، بالعكس هم ماشيين صح وواصلين لمراحل طبيعية.... المشكلة في أنا، والغلط عندي أنا.... أنا اللي متأخرة... أنا اللي متكعبلة ورا".

ظلت تلك الحالة تسكنها، إلى أن شعرت منذ شهرين أو ما يزيد عنهما بقليل، أن كل غيوم الإحباط والخيبة التي كست سماء أفكارها، قد تتبدد سريعاً، وتعود سماؤها زرقاء صافية، تتخللها خيوط شمس الأمل الذهبية،

وتأخذ الأمور مسارها الصحيح من جديد، حين واتتها فرصة نادرة، للحاق بركب النجاح.

فقد وقعت عيناها صدفة عبر الإنترنت، على إعلان لوظيفة ومركز مرموق بإحدى شركات المال والاقتصاد العالمية.... قرأت بعناية جميع متطلبات الوظيفة من مؤهلات، شهادات، سنوات خبرة، وظائف وطبيعة عمل سابقة، وهمهمت شفتاها بكل التفاصيل الموضحة عدة مرات.

تطابق تام وكأن الوظيفة حيكت لها !!!، وتقدمت للوظيفة، ظناً منها أن سهمها الذي أطلقته هذه المرة سوف يصيب منتصف لوحة السهام، لتسجل كما يقولون في اللعبة "بولز آي"، ربما ما أكسبها تلك الثقة هو أن شخصين تعرفهما معرفة شخصية ويعملان داخل تلك الشركة، أكدا لها أنها أهل لها، وفرصها في الفوز بالمنصب عالية:

" يا بنتي إسمعي الكلام، قدمي... والله هتتاخدي... إنتي ال "سي في" بتاعك قوي جداً وما هيصدقوا يلاقوا حد بخبرتك وشطارتك.... إنتي ليه مستقلية بنفسك كده".

كانت قد اعتادت على مثل تلك التعليقات والآراء من كل من عمل معها ويعرفها جيداً.... أنها ذات كفاءة عالية، وقدرات فائقة وخبرة واسعة، وأن سيرتها الذاتية قوية لافتة، وبرغم أن تلك الآراء، من المفترض أن تبعث السعادة في قلب أي شخص، وتضاعف ثقته بنفسه، فإنها كانت تزعج "علياء" أكثر من كونها تطمئنها، تحزنها أكثر من أن تبهجها، تحبطها أكثر من كونها تحفزها، تؤلمها أكثر من أن تريحها.... فالتناقض والتفاوت البائن بين ما تستحقه، وما أحرزته موجع.

وانتظرت... مرت الأيام والأسابيع ولا شيء...
حتى صارت الأسابيع شهرين كاملين ولا شيء..
وحتى هذه اللحظة، لا شيء....

لم تندهش أو تفاجأ... ما الجديد؟.... فلطالما كانت النتيجة لا شيء وهذا ما زاد الأمر خطورة.... فالأخطر من الشعور بالخذلان، هو الشعور بالاعتياد عليه والاستسلام لل"لا شيء"...

لم تنتفض غضباً وثورة، بل قابلت اللا شيء بهدوء شديد، بصمت مرعب، لم يكن حتى ذلك النوع من الصمت الذي يسبق العاصفة... فلم تعد تقوى على العواصف.

هل كانت ردة فعلها استسلاماً لأمر واقع، أم اعتياداً على أمر متكرر، أم تسليماً لقضاء الله وحكمه، أم امتثالاً لنصيبها، أم اعتقاداً أنها أخذت ما تستحق وكفى، أم هو نفاد قوتها على الصمود؟؟.... لم تعد حتى الأسباب تعنيها، وعلى هذا الاستنتاج النهائي غطت في نوم عميق.

وفي صباح اليوم التالي، استيقظت باكراً كعادتها كي تذهب إلى عملها، وبعد أن انتهت من ارتداء ملابسها وأنهت طقوسها الصباحية المعتادة، خرجت من منزلها متجهة إلى منزل والدتها الذي يبعد عنها بضع دقائق بالسيارة... كان يجب أن تطمئن عليها، فقد كانت والدتها "كريمان" تمر بوعكة صحية خفيفة منذ عدة أيام:

-"صباح الخير يا مامي".
-"صباح الخير يا قلب أمك... إزيك".
-"أنا تمام... الحمد لله زى الفل... حضرتك اللي إزيك النهارده".
-"أنا كمان زى الفل... في نعمة وفضل يا حبيبتي".
-"يا رب دايماً حبيبتي... يديكي الصحة والعمر ويخليكي لينا يا رب".

"مرسى حبيبتي... مالك يا علياء؟... فيكي إيه؟".

"مالي يا مامي.. أنا كويسة".

"لا مش كويسة... تفتكري أمك مش هتكشفك؟... اللي ربى خير من اللي اشترى... مالك؟".

"عادى ضغط شغل يا مامي مش أكتر".

نظرت إليها والدتها غير مصدقة، لكنها لم تشأ أن تضغط على ابنتها بالسؤال.... فهي تعرف ابنتها حق المعرفة... كتومة قلما تبوح بمكنون قلبها لأحد، حتى وأن كانت والدتها!!!:

-" أما أنا عندي ليكي حتة دين مفاجأة... استني أما أشوف أنا عنتها فين... أصلى كنت بدعبس في ورق قديم عندي ولقيتها... إنتي عارفة أمك مش بترمي حاجة أبدا."

أدخلت والدتها يدها داخل درج الكومودينو وأخذت تقلب ببطء في الأوراق والأشياء المبعثرة داخله، حتى أخرجت قصاصة ورق صفراء صغيرة:

-"أهي لقيتها... خدى اقرى كده... دي حاجة أنا كنت كتبتهالك وإنتي صغيرة أوى.. مش عارفة هتفتكريها ولا لا!!".

أمسكت "علياء" بالورقة وقرأتها:

"ملاكي الجميل علياء...

أنا فخورة بيكي جدا يا لالى،،، فوق ما تتخيلي...

فخورة بشخصيتك القوية وباعتمادك على نفسك... سعيدة بذكائك وإصرارك الدائم على النجاح والتفوق... فإلى الأمام دوماً حبيبة مامي، وربنا هيكون دايما معاكي.... وهيكون النجاح دايماً حليفك طول ما إنت بتجتهدي... افتكري كلامي كويس...

حبيبتك مامي".

وبنظرة على التاريخ المدون أسفل الإمضاء، أدركت علياء أن تلك الرسالة كتبت منذ سبعة وعشرين عاماً... كانت تبلغ وقتها سن الثانية عشرة من عمرها، وكانت قد انتهت لتوها من اجتياز امتحان الشهادة الابتدائية، وكانت الأولى على المدرسة.....

يا لتدابير الله.... يا لدقة وعبقرية التوقيت...
يشاء الله أن تعثر والدتها على تلك القصاصة بالأمس دوناً عن باقي الأيام، لتحمل تلك الرسالة الربانية بين أحرفها وسطورها، ثم تختار أن تذهب لوالدتها في هذا الصباح بالذات لتتلقاها، وهي في هذه الحالة
عانقت والدتها عناقاً قوياً، وظلت تقبل يد أمها وجبينها وهي تبكي...
بكت لأمرين، أولهما أنها سعدت كثيراً كوّن تلك كانت ولا زالت نظرة والدتها لها، فافتخار الأم بأولادها من أجمل وأغلى ما قد تهديه لهم، لأنه يعزز داخلهم الثقة بالنفس.

هذا ما فعلته الرسالة بها منذ أعوام بعيدة، وها هي تعيد الكرة مجدداً اليوم.
والأمر الثاني... أنه جاء بمثابة رسالة من الله ألا تخاف وألا تحزن، وأن الله معها والنجاح سيكون حليفها مهما طال انتظارها... عليها فقط بالصبر.

ربما كانت تكفيها تلك الرسالة وتفيض... لكن لله رب السموات والأرض تدبيراً آخر، فقد اختار أن يعيد عليها الرسالة كرة أخرى لعل "في الإعادة إفادة".
فبعد أن تركت والدتها متجهة إلى عملها، ووصلت إلى مكتبها، وهمت أن تفتح "اللاب توب" لتستهل عملها، سمعت رنة الهاتف تنبهها إلى أنها تلقت رسالة على "الماسنجر"!!، فتحت الرسالة لتجدها من صديقة على "الفيسبوك"، تدعى

"هبة الله "، قلما يحاكيان بعضهما البعض، لأن المعرفة بينهما شبه سطحية، ولَم يلتقيا يوماً في الواقع، ورغم ذلك بعثت لها برسالة اليوم دوناً عن باقي الأيام، قالت فيها:

"حتى وأن كان طريق حلمك صعباً لا تستسلم، لا تقلق لا تيأس، فالذي خلق الطريق الصعب، خلق فيك القدرة والقوة على اجتيازه". ظلت تمسك بالهاتف غير مصدقة، تعيد قراءة الرسالة مرة تلو الأخرى. هل يحبها الله لتلك الدرجة حتى يجبر خاطرها هكذا!؟ ماذا فعلت لتستحق هذا الحب!؟

لم تجد لهذا السؤال إجابة واضحة مقنعة في تلك اللحظة، لكن الله وافاها بالإجابة بعد مرور عشر دقائق فقط، لعل قلبها يهدأ ويستكين. فقد أرسل إليها أحد أصدقائها المقربين، الذين اعتادوا إرسال الرسائل لها، فيديو للشيخ محمد متولي الشعراوى، استهل حديثه في بدايته بتلك العبارة "الله ودود، أي محب لكم، عطوف عليكم"، وأشار إلى حديث قدسي يقول فيه الله عزوجل "يا ابن آدم لا تخافن من ذي سلطان ما دام سلطاني باقياً، وسلطاني لا ينفد أبدا... يا ابن آدم لا تخشى من ضيق الرزق وخزائني ملآنة، وخزائني لا تنفد أبدا... يا ابن آدم خلقتك للعبادة، فلا تلعب، وضمنت لك رزقك فلا تتعب".

ووقف هنا ليفسر "فلا تتعب" قائلا: "عليك بالتعب بجوارحك، وليس بقلبك، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل".

ثم أكمل باقي الحديث " فوعزتى وجلالي إن رضيت بما قسمته لك، أرحت قلبك وبدنك وكنت عندي محمودا، وأن أنت لم ترض بما قسمته لك، فوعزتى وجلالي لأسلطن عليك الدنيا، تركض فيها ركض الوحوش في البرية، ثم لا يكون

لك منها إلا ما قسمته لك... يا ابن آدم خلقت السماوات والأرض، ولَم أعيى بخلقهم، أيعيينى رغيف عيش أسوقه إليك.... يا ابن آدم لا تسالنى رزق غد كما لم أطلب منك عمل غد".

ثم أنهى الحديث القدسي برسالة الله لها، التي استوعبتها جيداً: "يا ابن آدم أنا لك محب، فبحقي عليك كن لي محباً".

صَاحبة السعادة

جيهان جمال

تُعَاود مسافرة بعد أن أغلقت "المايك"، وانتهى وقت إذاعة برنامجها الصباحي اليومي.. تحمل بحقيبتها أوراقها، وتلك الروح التي عادت إليها حين تلاقت مع صدى صوته، وهو يصدح بين زوايا القلب بكل ما يقوله، وثمة ارتعاشة لا تُدرك لها تفسيراً سوى أنها إذا غاب صوته لأكثر من يومين، وانقطع اتصاله بالبرنامج تُسائلها عنه الأشواق!

وقبلما تَبحث عن إجابة لهذه المشاعر تحاول جاهدة إنكار احتلاله قلبها.

فكيف لها أن تُحب شخصاً لا تعرفه، ولم تره على الإطلاق سوى بعين خيالها الجميل، وهي الإنسانة التي ترجح كفة العقل، والمنطق، عندما تفكر بأي أمر من أمور الحياة.

إذن فكيف لها أن تُحب همساً! فصوته كان ومازال لا يتعدى مجرد همس لكنه يَحتويها، صحيح أنها لم تُنكر عليه هذا الاحتواء الذي تشعر به.. كُلَّمَا أَتاها صوته حاملا تلك النبرة الرجولية الهادئة دون افتعال، والتي تنم عن دماثة خُلق.

تشرد بعيداً، وهي جالسة لجوار سائقها الخاص، عائدة لمنزلها الذي يجاور نيل القاهرة بمنطقة وسط البلد.. ذلك المنزل الصغير الذي لا يضم سواها بحضن قلب أمها مدام وفاء، مدير عام الحجر الصحي.. ليَنتهي يَومهما هادئ مستكيناً،

كَأيام كَثيرة بدت في تلك الفترة الأخيرة من سنوات عمر "سعادة"، التي لم تتعد الثلاثين، بعد أن كانت تضج بالمرح في كل مكان.

مازالت عائدة، فالطريق زحام من استوديو الإذاعة بأكتوبر لوسط البلد، لتجد نفسها تعود عنده، وتسأل عنه.

أهو آتٍ على غير موعد أو انتظار ليقتحم كُل القلاع الحصينة التي فرضتها منذ السنوات الخمس الأخيرة على حياتها، والهرُوب بها من هذا السجن الذي وضعت به قلبها، إلى هذه المنطقة من المشاعر التي تشبه شيئا تناسته، اسمه الحُب؟

إشراقة يَوم جديد..

وكَما عَودت أيامها أن تَصحو على أَصوات أَذان الفَجر، فهَا هو صوت العصافير يَسبقها، ويَلحق بقافلة من سعدوا بأيام الله جميعها، وصَباح بِكْر يَفوح بعِطْر صوتها المتهادي حبواً على خُطى أمنيات تحادث الحزن أن يَرحل، حَاملاً حَقائب أَسفاره الثَقيلة، وأن يتركها ليَمضي بعيداً.. بعيداً!

لكن الحزن يجاهر بوجهه القبيح، ويشيح لتِلْك الأمنيات البَريئة أن تبعد، ولا يخجل أن يظل يتمرغ في كل هذا السفه المجنون، ويأبي الرحيل عنها.

هَذا السفه المجنون الذي خَطف روح الحياة، وقَتل الحلم السعيد في لحظة أطبق فيها ذاك الكَابوس على وجه سعادة!

وهاهي راضية أنها تُمسك بصوتها الذي أحبه الناس بتَلابيب قلوبهم، ولازالت قادرة أن تَملأها بعبق مُعطر بالحكايا، وأن البسمة الدائمة التي مازالت تسكن صوتها، لم يقدر سَارقو الأحلام أن يختطفوها منها رغم كل ما حدث.

فَترتسم بسمات كثيرة على جدار أيام القلوب الآتية إليها لتصحيها عبر الأثير، حتى صارت هي على الدوام نور الصباح للكثير من تلك القلوب، التي أنهكها ظلام ليل طويل مليء بوجع وأعباء الحياة، ليشرق جميعهم من جديد مع إشراقة شمس كل يوم جديد، ويسطع صوتها في سماوات من مَحبة، غارساً نبتة السعادة بوجدان المُحيطين بالراديو، والمُتمسكين بلحظات الأمل معها من مستمعيها، ومحبيها علها تحصد بهم ولو بعضاً من أوقات هنية لا تقبل انكسارا.

ثم يبدأ الجميع تكملة اليوم بنظرة متفائلة لما ستحمله دقات الساعات المسافرة برحلة العُمر عبر قطار الحياة اليومي، الذي لا تستوقفه أي محطات أخرى بعد الاستمتاع بمحطتها الإذاعية، وصوتها الجميل.

فتجدهم لا يستسلمون سوى للوقوف بتلك المحطات الإجبارية من المسئوليات المتعددة، والمختلفة الأوجه حسب طبيعة أعمال وحياة معظم جمهورها العريض، سواء كان يتابعها باكراً بالسيارة أو بالمرافق العامة أو على الكافيهات أو ما شابه.

لتصبح محطتها الإذاعية فوق مستوى المنافسة، بشهادة كل القلوب التي تهفو إليها مُسافرة عَبر مسافات الزمن الماضي دائماً للأمام ولا ينظر وراءه.

أما هي فلا تُدرك الوصول للحاضر سوى بينهم ومعهم بكل إشراقة صباح جَديد وفنجان قهوتها الذائب في حنين المسافات بينها وبينه، فهما دوماً على سفر رغم التلاقي عَبر ميكرفون الإذاعة حين تتبادل الحديث مع مُستَمعيها، ليكون هو دائماً في مقدمة المُحبين، وأول من وقف بصفوف صُحبة مَطارح القلب حِين يَتلقى برنامجها اتصالات المستمعين، ويتبادلون الحديث في شتى أمور الحياة.

فدائماً ما يترك صَوته وآراؤه انطباعات خاصة لديها ليتقاربا دون أن تَجمعهم أماكن، ولا تُباعدهم مَسافات، وليكتفيان بمطارح بالقلب عبر أثير مسارات الروح، حتى وأن كان دون كَلام مُباح، ليتولى إلهام الإحساس، وصدق المشاعر ترتيب الأماكن بينهما.

في المنزل..

بعد تَناول الغذاء الشهي الذي أَعدته أمها الحنون، تتناول "سعادة" الشاي الممتزج بذكريات الأيام مع صحبة الأصدقاء التي كانت تطيب بهم الأوقات بنكهة أحلام العمر النبيل، ثم تستوقفها عجلة الأيام لتقف عند البلكون وبالذات عند تلك اللحظة وسط جموع الشباب الحالم بالحرية، والعيش، والكرامة الإنسانية.

ترى نفسها تتدافع بينهم بالخطوة السريعة الواثقة في غد أفضل بالحب تارة، وبالتصفيق تارة، وبالأعلام المرفوعة على كفوف القلوب الهاتفة تحيا بلادي، والأيادي المرفوعة بشموخ لتعتلي بالسعادة والفخر سماوات من رحابة الانتصار للعدالة الإنسانية.

تَفيق على صوت أمها الرقيق يناديها، ذاك الصوت الذي زاد رقته وعذوبته، ذاك الشجن النبيل والحزين الذي صحبه منذ ما حدث لابنتها.

تُمسك أمها بالكرسي الذي يحمل انكسارات ابنتها بيد، واليد الأخرى تحنو بها على خصلات شعرها الذهبي المسترسل في وداعة.. تعترف الأم أن تلك الوداعة لم تغب عن عيون ابنتها العسلية سوى بعض أوقات معاناة ما حدث، لتُخرِج سعادة من البلكون، وهي جالسة على ذات الكرسي المتحرك الذي ما فارقها طوال الخمس سنوات الأخيرة، تلك السنوات التي غابت عنها فيها أشياء كثيرة، أهمها رحيل هذا الذي توهمته حباً دون وداع، من بعد الحادث الذي تعرضت له.

الوقت قد قارب على غروب الشمس، والأم تُحاكيها عن حلقتها الصباحية، وروعة إحساسها العالي كعادتها في كل حلقاتها لتقول:

"سعادة حبيبتي ربنا يسعدك مِثلما تُسعدين الناس، وتُدخلين على قلوبهم الفرحة والأمل".

تبتسم سعادة لتسعد أمها، وترسل لها بعبقرية من خلال هذه الابتسامة الراضية إشارات التسليم بقضاء الله وقدره.

فَتُحاكيها أمها أن الله قد اختصها بحُبه حين أَنزل عليها وعلي قَلبها هذا الرضي، وهذه السَكينة، وأعطاها من اسمها ما تمنحه لغيرها من سعادة برقي مشاعرها وروعة حضورها، وذكائها الاجتماعي، لتتذكر سعادة كيف أنها عادت للحياة من جديد، بعد معاناة أخذت بعض الوقت، كي تتأقلم مع الوضع الذي آلت إليه،

ومن بعد جلسات تأهيل نفسي، وذوبان كامل مع أشياء كثيرة حدثت من حولها بالمجتمع، لتجد أنها ليست الوحيدة التي ضحت من أجل حياة كل هؤلاء، فكثيرا من العائلات ضحت، فمنهم من تقبل برضا فقدان الابن أو الأخ أو الزوج أو الأب.

أحد الأيام..

أثناء تواجدها بمركز التأهيل النفسي، رأت إحدى صديقاتها تتأبط ذراع شاب يرتدى نظارة شمسية على عينيه وممسكاً عصاه باليد الأخرى، أقبلت عليها صديقتها والشاب، ورحبا بها بابتسامة لم تفارقهما منذ أن وقعت عيناها عليهما حتى فارقاها.. وهما واضعين أقدامها التي كانت تتدلى من الكرسي، وهي تتمرغ ساكنة في حزن عميق، على الطريق الأفضل، بعد أن تركا بقلبها، وعقلها الدرس الأعظم، وهو أن ما حدث حدث، فكيف لنا أن نكمل دون الرجوع للخلف؟

عرفت أن هذا الشاب الوسيم فقد بصره، لكنه لم يفقد بصيرته، وعقله، ولم يفقد باقي حواسه التي منحها الله له، والأهم أنه خرج من أزمته غير فاقد الأمل في وجود من يستحق أن يكمل لأجله الحياة، فاطمأنت لرسائل السماء.

وما كان منها بعد أن استعادت روح الحياة، إلا أن تعود لعملها بالإذاعة بهذا البرنامج الجماهيري، تاركة البرنامج السياسي الذي كانت تعمل به، لترفع عن كاهل الجميع من البُسطاء، والشباب، والمُفكرين أعباء الحياة، وتحيا بهم، ومعهم من جديد.

فَجمهورها العَريض جداً خَليط من كُل هؤلاء وبَرنامجها بِكُل المقاييس قد أَعطته الاستفتاءات الجَماهيرية المَركز الأول في أنه برنامج مُتكامل الرؤية، ومُختلف المَذاق، فاجتمع عليه معظم المصريين.

تتذكر التَصفيق الحاد الذي سعدت به، وضحكات هادئةً من المحيطين بالقلب أسعدت أمها، وأسعدتها هي شخصياً في هذه الاحتفالية التي خصتها بها الإذاعة.

شعرت أنه ربما حان وقت تطييب خاطر أمها التي عاشت لأجلها بعد وفاة الأب مدرس اللغات، ولأنها تعلم تماماً أن مُعاناة أمها ذادت بعد الحادث الذي تَعرضت له، فما عاد يسعدها شيء بتلك الحياة غير رؤية ابتسامة أمها على شفتيها. فهما قد اجتازتا الأزمة معاً بهذه الحالة الاستثنائية من السمو، والرضا بقضاء الله وقدره، منذ أُصيبت سعادة بأعيرة نارية هوجاء، أثناء ثَورة الخامس والعشرين من يناير من قلوب أعماها الظلم، فلم تُفرق بين أحباب وأعداء هذا البلد!، حين اختلط الحابل بالنابل ولم يَعرف مُعظم هؤلاء الضحايا من جموع المصابين أو أهالي الشهداء حتى الآن كيف حدث ذلك!؟، ومن أين هبط كل هؤلاء الشياطين، وحطوا على أكتاف وطنهم الغالي!؟، حتى كاد الوطن أن ينتحر تحت أقدام الجميع، لولا رعاية الله التي أنقذت سعادة، وأمثالها الكَثيرون من الموت بعدما أمَاتوا وقَتلوا الكَثيرين من أصدقائهم، وزملائهم من شُهَدَاء الوطن أمام أعينهم، فصار هؤلاء الشهداء هم الذين رَفعوا الوطن على أكتاف الحُرية، وانتشلوه من تِلْك الهوة السَحِيقة.

إذن لا بأس من أن تدفع سعادة وغيرها من الشرفاء ضريبة الحب، ليتعافي هذا الوطن، حتى لو بتلك التَضحيات الغالية فالوطن أَغلى.

منزل السيدة أمل .. ليلا..

تطل بعينيها البريئتين من نافذة الشرفة المطلة على مطارحهم التي هجروها لكنهم ماهجروا قليها، وفى كل ليلة تعلم أن هناك وجعاً مسافراً بألم في زمن لم يعد بريئا، عائدا بدعوات أمل، علها تستجاب من قلب أم تحمل هموم أولادها، وتحمل ما جثم على صدر الوطن من هموم.. فتنظر إلى السماء تدعو الله أن يحفظ مصروأهلها.

وكما اعتادت حين يقهرهَا الملل أن تغلق التلفازعلى هذا الحديث المتكرر في كل ليلة، والذي يؤلم نفسها، فتفضل أن تهرب إلى نافذة الشرفة ثم شيئا فشيئا تجد نفسها جالسة بها حتى أذان الفجر.

فقد سئمت ذات الحديث عن سنوات الربيع العربي التي قد أَطاحت بأحلام معظم بسطاء هذه الأوطان، في أن يقطفوا ولو ثمرة واحدة من ثمار العدل، والحرية. من خيرات أَوطانهم التي سرقت، وقذف بهم في بحور ظالمة، وأراضٍ استوطنت فيها الفتن.

وها هي تفضل أن تكون على الجانب الآخر من نهر الحكايا، لترى نيل القاهرة الساحر شامخا، يقف حائط صد، يحاكي الأمل المتمني غدا مشرقا.

تمر الساعات، ومازالت السيدة أمل تحاكي النيل، وتنظر إلى السماء في رحابة من يقين بأنه مازالت هناك رسائل تستدعي إشارات من فرح.

وتشتهى الأمل في حياة أفضل ظلت تلوح بها الأيام والليالي منذ سنوات قريبة، وحتى أمس الأمس، لنجد أمنا الأرض التي تحملنا جميعا تتبادل هي الأخرى رسائلها مع السماء ما بين رياح وزوابع ولطف خفي يتساقط مطرا ليغسل القلوب، ويجبر الخواطر.

صباح أحد الأيام

وبرغم كل هذا البوح الذي يملأ المشهد، ويشي بمدي ظلم الإنسان للإنسان، فإن للحكي الصادق عبر أثير الراديو شأنا آخر في أن يشحذ الهمم، ويملأ القلوب بالكثير من الأمل، مما يكون له مردود عظيم، يتملك مشاعر الناس ويستدعيهم للمزيد من العطاء، وهو ما حدث للمستمعين، وللسيدة أمل حين وجدت نفسها في صباح أحد الأيام تتصل بمنتهى التلقائية ببرنامج سعادة الإذاعي الصباحي الشهير "منكم وبكم "، لتظل السيدة أمل تفضفض، وتحكي ما يجب أن يقال، وتخبئ بالقلب ما لا يجب أن يقال، كي تظل صورة أولادها طيبة أمام الجميع، كما حرصت دائما شأنها شأن الكثيرات من أمهاتنا الغاليات، فرحلة كفاح أمل كانت طويلة مع الزوج، والأولاد حتى مات الزوج، وهي في منتصف الطَريق.

تتذكر أمل كيف ثابرت، وهي في ريعان شبابها، وأكملت الرحلة لعشر سنوات متصلة، تدبر تكاليف عيش الأيام، ومصروفات الدراسة من راتبها كمدرسة رياضيات، وهي في منتهى الحرص ألا تستقطع من وقت أولادها غير جزء بسيط، تقوم فيه بإعطاء الدروس الخصوصية، كي لا تجور على حقهم الكبير في الاعتناء بهم.

ثابرت راضية بمعاش زوجها البسيط كمدرس للموسيقى، ثابرت حتى اطمأنت على أولادها، لكن أولادها ما اهتموا أن يطمئنوا على أمهم، بعد أن تخرجوا في الجامعات المختلفة، فتزوجت الابنة الكبرى، ورزقت بابنة وحيدة، فانشغلت عن أمها بالأيام، والليالي تلهث وراء عملها بالشركة الاستثمارية الكبرى، وتتبع أنانية زوجها المفرطة في الانشغال عن الأحبة.

وتزوج ابن أمل وسافر بزوجته للعمل خارج البلاد، وكلما عاد في الأجازة الصيفية، وحاول أن يتذكر أمه شغلته زوجته بالرحلات، والسفر مع عائلتها للشاليه الذي يمتلكونه بالساحل الشمالي، ثم تنقضي الأجازة، وهو مستسلم تماما لهذه الحالة من البعد الاختياري، والجفاء، ليعود إلى أمه في كل مرة كي يودعها، ويعتذر لها قبل عودته لعمله مع زوجته وأولاده، ويعدها أن الأجازة القادمة سيقضيها معها، لكنه ما أوفى بأي وعد.

إحدى ليالي شتاء ٢٠١٣

تلك الليلة الباردة التي حملت إليها ذاك الصبي النحيل، الذي كانت بشرته بلون قلبه البريء من كل ذنوب الأنظمة والحروب الظالمة، وعيناه اللتان كانتا لم تزالان تحملان بصيصا يشي بألوان لازالت تتلألأ بالسماء، فتطرق نظراته على قلبها، يقف أمامها واضعا يدا في جيب بنطاله الفقير، واليد الأخرى ممسكة بيد ائتمنها القدر عليه، فرحمة السماء دوما تمطر أسبابا حانية تدعم الحق في الحياة.

السيدة أمل ترحب بالقادمين، وهاهي تصمت حين وقعت عيناها عليه، وكأنها ترى المعنى الحقيقي للوعة العائد من الجحيم!

قريبها العزيز الأستاذ حسين، يبادر بالحديث وفي يديه هذا الملاك البريء:

أحضرت لكِ أمانة كما أخبرتك بالتليفون، وأنا على يقين أنكِ من سيصونها.

تفتح قلبها، وعقلها لتستوعب هذا الملاك الطاهر الذي حن عليه القدر، وطبطبت عليه الأيام حين حطت أقدامه البريئة، وهي عارية ترتجف حافية من هول الأيام، لتتدثر بدفء الأمل، وتخطو بأمان ببيت السيدة أمل!

هذا البريء الذي أحاطته هي بالرعاية لتسبغ عليه حنان الأم التي حرم منها، كي تزيح عنه مرار ما قاسى.

يحكي لها طاهر بعدما هدأ واسترد آدميته في بيتها ما حدث منذ اندلاع الحرب ذات يوم حالك السواد أغمضت فيه الشمس عيونها لتصير مدينته الهادئة في لحظة خاطفة غادرة، وكأنها تتخبط معصوبة العينين في نيران عاتية تقذف لهيبا عليهم جميعا من هنا، ومن هناك، ليلفظ اللهيب بكل أبنائها خارج حدود أرضها الطيبة، فرارا من الدمار الذي طال الأخضر واليابس وأطاح بكل شيء، ليجد نفسه محمولا ما بين رحمة السماء، ورحابة القلوب مع من بقى حيا من أبناء، ورجال، ونساء، وأطفال الحي الذي كان يسكن فيه.

كل ما استوعبه بعد ذلك، أنه كان على متن باخرة أوصلتهم حتى إحدى موانئ مصر، ليعرف أثناء الرحلة التي حملتهم على أشرعة من خوف ونحيب عيون قتلها فراق الأحبة، ونظرات من حوله، ليدرك رغم حداثة سنه، أن أسرته رحلت إلى رحمة السماء، فرارا من ظلم أهل الأرض، وماتوا.. ليظل على حال صعب تتملكه أحزان تفوق احتماله مع باقي من بقوا من أهل بلده الحزين.

يصلون جميعا في حالة لا يرثى لها إلى القاهرة، ثم يودع معظم الأطفال إحدى دور الرعاية، حتى وصل بيتها برفقة هذا القريب الطيب، ليعاود الحزن البريء، ويحاكيها أنه قد ضاع منه كل شيء، ولم يتبق منه سوى اسمه، وحقيبة المدرسة، وحذاء كان يرتديه بقدميه يوم الحادث المفجع لبلدته. خلعه كما انخلع قلبه من صدره، ليسابق الريح مع الجميع، فراراً من الموت.

وهكذا كتبت له النجاة.. حتى سكن هذا القلب الكبير قلب السيدة أمل الذي احتوى هذا البريء.

الذي لم تلوثه الأنظمة بعد، ليصبح في منزلة الابن، أو الحفيد مع تلك السيدة الجميلة، التي تركها أولادها وذهب كل منهم إلى حياته، متناسين من ضحت بكل أيام عمرها منذ وفاة أبيهم لأجلهم، لكنها لم ينضب لها معين بعد!

أحد الأيام..

يتصل أولادها ببعض حين وصلهم خبر احتضان أمهم لهذا المسكين، في محاولة لطرد طاهر من البيت، متصورين أن أمهم لم تبلغ رشدها بعد!، وأن من حقهم التدخل في حياتها، وحرمانها من العطف على هذا المسكين، حتى صارت

مشادة تليفونية بينهم، وبين الأستاذ حسين قريبهم، متصورين بخيالهم المريض أن الجميع يستغل أمهم، إلى أن وصل الأمر أن مرضت السيدة أمل لتجد طاهرا في حنان الابن، والابنة الغائبين، والأحفاد الذين حرمت منهم، وهو يطبطب على روحها، ويقوم برعايتها، فتتمسك به أكثر وأكثر!

لقد رأت في عيون الطفل إصرارا عظيما لإثبات الوجود، وتكملة المسير، للأسف لم يشعر به أولادها، وكأنه خرج من تلك التجارب القاسية بفراره من الحروب في بلده، ليجد بانتظاره حرب أبناء السيدة أمل.

تنظر إليه السيدة أمل، وكأنه شاباً يافعا قادرا على مجابهة الأيام ليحيي لها الأمل، بأنها مازالت قادرة على العطاء، وتحيي هي فيه أسباب الحياة.

ساعدته وذهبت معه لما هو أبعد، فراحت تساعد، وتساند من في مثل ظروفه من أطفال مصريين، كانوا يعيشون بينها ولكنها لم تكن تراهم، لكن طاهر ظل ولدها الذي صالحتها به الأيام، وكأن القدر جمعهما ليضع على نافذة قلبيهما أنه لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس، وليمتد العطاء للجميع لكن هؤلاء اللاجئين قد أثروا فيها بشكل خاص، إنها رأت من خلالهم عزما وعزيمة جعلاها تخرج من قوقعة أيامها.

لقد أدركت كم لاقوا، وعانوا كي يصلوا لمصر، ولغيرها من البلدان القليلة الآمنة بالمنطقة، فارين من ويلات الحرب والدمار، فقررت فتفح محل زوجها المغلق منذ وفاته، والذي كان يبيع به الآلات الموسيقية. قررت أمل أن تحيا معهم من جديد، وما بين يوم وليلة، دبت الروح من جديد في كل الأشياء من حولها، ليعمل جميعهم بالمحل في مشروع للفطائر، تجمع فيه ما بين المذاقات العربية

والشرقية، والمذاق المصري وتشبع هوايتها المفضلة في عمل الفطائر والحلوى، وتشبع أيضاً إحساسها الكريم بإطعام الآخرين.

والأجمل أنه عند عودة الطفل من مدرسته التي انتظم بها، وهو فرح منطلق بابتسامته التي لا تفارقه، تكتشف السيدة أنها هي الأخرى تعود معه، ومعهم في كل لحظة للحياة. أما أبناء السيدة أمل فظلوا إلى حد ما في حالة من الغضب، ولكن أمل على يقين بأن الأيام كفيلة بأن يتفهموا أنه كان من الممكن أن يكون أحد أولادهم في ظروف طاهر لولا عناية الله بمصر وأهلها.

تستمر أمل في نجاح مشروعها مع الشباب، ومعهم الأستاذ حسين الذي تولى معها الإدارة، والحسابات، وبالفعل يتأكد لهم جميعا أنه ليس من السهل هزيمة شخص لم يهزمه اليأس، وأن البحر الهادئ لن يصنع بحارا عظيما. كان لهذه الحلقة أكبر الأثر على عقل، وقلب سعادة لتعود أيضا هي الأخرى للحياة من جديد.

وهكذا عرفت سعادة الفرق بين أن تبقى قعيدة على كرسي متحرك فاقدة الحركة، وبين أن تفقد إيمانها يوما بأن السعادة هي نحن وما نخرج به من تجارب الأيام.

أدركت أن الحرية ليست في الحركة على قدمين وفقط. فالحرية هي حرية العقول، وتحرر القلوب من الغل، وأن الطريق مازال صعبا، لكنه مازال أيضا مفتوحا!

يوم جديد..

ومع إحدى المفاجآت الحلوة للأيام، تستيقظ سعادة على صوت "باهي"، والذي لا تخطئه مسامع قلبها، وقبل أن تسأله من أين له برقم الموبايل الخاص بها؟، يخبرها بأنه صديق مقرب لمهندس الصوت الخاص ببرنامجها. ومن بعد تعارف رقيق، يطلب منها أن تسمح له بشرف صَداقتها، مع وعد بالسماح له بمقابلتها، ثم تنتهي المكالمة.

وسعادة يلفها صمت الحنين إليه، والذي يفوق أي كلام! فهو ليس بالغريب أبداً عنها، ولماذا هذا الشعور المُطَبّق على كُل الثقة فيه ومن أين أَتتها هذه الثقة بعد ما حدث لها مع وهم الحب المتخلى عنها من بعد الحادث!؟ لا تدري، لكنها تطمئن لشعور خاص بالثقة في نفسها وفى إحساسها الصادق، على الرغم من عدم إعطائها له أي وعود بلقاء!

تركن إلى نفسها للحظات، وهي تتناول كوب النيسكافيه الصباحي بشرفة منزلها، وتتساءل في هدوء: أخائفة أن يراني قعيدة كرسي متحرك؟

ثم تُبعد هذا السؤال الذي يَجرحها عن مُخيلتها، وعقلها تَماماً، وتُقذف به بعيداً.. بعيداً خارج حدود الروح التي ما صدقت أنها طابت من أوجاعها.

تستكين في وداعة على عتبات الرضي التي افترشت عليها قلبها بالتسليم لأقدارها. ذلك التسليم الذي صار هو الدافع الذي يُعطيها الثقة والدفعة لأن تواصل الحياة بالأمل.

على الجانب الآخر صار باهي يسأل عليها يوما بعد يوم، حتى غلبه الشوق للقياها، فإذ به يذهب للاستوديو دونما مَوعد، فأحلي ما في الحُب هو أنه يأتينا دون استئذان.

استوديو الإذاعة..

بعد انتهاء البرنامج يدخل باهى متحججا بزيارة صديقه مهندس الصوت، ليجدها كما تخيلها ملاكا رقيقا يجلس على الكرسي المتحرك، تسمع صوته، تلتفت بقلبها قبل عينيها.

ودونما كلام يتجه نحوها وسط زملائها بالاستوديو، ويُمسِك بيديها بعدما أَلقي على مسامعها باسمه، فهي أول مرة تراه أمامها.

لم يكن يدرك أن قَلبها قد أَخبرها منذ وقعت عيناها عَليه أثناء دخوله الاستوديو وقد تَعَرف عليه، إنه هو الذي تقاسم معها الأوقات بالروح والإحساس، وهو الذي تونست كثيراً كثيراً بصوته!

يلفها باهي بنظرة حب، ويضمها بدفء عينيه، ليخبرها همساً بالروح وكما تعودا قبلاً من خلال اتصالاته السابقة بالبرنامج، مؤكد لها صدق مشاعرها تجاهه. يَذهبان لكَافيه قُرْب الاستوديو، وقبلما تُخبره بأي تَفاصيل يخبرها هو بأنه كان يعلم كل التفاصيل عنها من صديقه زَميلها بالاستوديو، ليزرع نبتة جديدة للسعادة بقلبها البريء، ولما لا ؟ أليست هي صاحبة السعادة؟.

عودة إلى المستقبل

دينا أبو الوفا

يوليو ٢٠١٧

أيقظها من نومها العميق، صوت نباح كلابها (الجيرمان شيبرد) الثلاثة في الحديقة. وبرغم حبها وتعلقها الشديد بهم، لما يكنوه لها من حب ووفاء شديدين- لم تنعم بهما من بني البشر- فإنها كانت تستشيط غضباً كلما أيقظها من نومها نباحهم الجهوري في الساعات المبكرة من النهار، وعادة ما يحدث ذلك كلما دخل "عّم عابد" الجنايني حديقة الفيلا ليرعاها ويرويها ويتابع تنسيقها، أو كلما فتح حارس الفيلا "عّم فرج" الأبواب الحديدية الخارجية للفيلا، لزائر ما غير مألوف لها.

كانت عقارب الساعة قد أشارت إلى تمام الثانية عشرة ظهراً. قد لا يعتبر ذلك وقتاً مبكراً إلا أن جفونها لم تغمض إلا بعد بزوغ الشمس، فأحداث ليلة أمس كانت كفيلة بأن تسرق النوم من كل ليالي عمرها الباقية، حتى وإن كانت نعمت بنوم عميق فلمَ تستيقظ مبكراً!؟ فعادة ما يستهل الناس يومهم في الساعات المبكرة من النهار بحثاً عن لقمة العيش أينما كانت، أما هي فلم تكن بحاجة للسعي وراء لقمة العيش، فهي تملك كل شيء.. كل شيء!!!!

هكذا ظن كل من حولها وكم كانوا مخطئين في ظنهم. فكم هو أمر مضلل حينما يتبع الناس المقولة الرائجة "الجواب بيبان من عنوانه". فمنذ متى ومحتوى أي خطاب وتفاصيله وخباياه، تتضح وتنكشف من مجرد النظر إلى

المظروف الخارجي أو قراءة أولى كلماته، في حين أن الحقيقة تختبئ أحيانا كثيرة بين السطور، هذا لمن يجيد القراءة بين السطور.

أفاقت "زينة" بعد محاولات بائسة للخلود إلى النوم مرة أخرى، باءت جميعها بالفشل، فظلت تتقلب في فراشها يميناً ويساراً دون أية فائدة. فقد كانت هذه عادتها منذ أن كانت طفلة صغيرة، إذا أفاقت من نومها لسبب ما، يستحيل عليها أن تغط في النوم مرة أخرى حتى وإن كانت منهكة القوى. وعليه فقد اعتدلت في جلستها بعصبية وضيق، بعد أن كدست جميع الوسادات خلف ظهرها.

جلست تحدق في صمت تام، في أرجاء غرفة نومها وكأنها كانت تأمل لو أن شيئاً قد تغير بها بين عشية وضحاها. هل كانت تطمح بالفعل في تغيير ما في غرفتها؟ أم أنها كانت تطمح في واقع الأمر لتغيير جذري بحياتها والعودة بالزمن عدة أعوام إلى الوراء؟، لعلها تبدل اختياراتها، وحين لم يكن ذلك ممكناً، اكتفت باستبدال تلك الأمنية بعيدة المنال بأخرى أكثر واقعية وسهولة.

كانت حجرة نومها شاسعة تتسم بالأناقة في جميع تفاصيلها، بداية من طلاء الحائط ذي اللون السيمون الهادئ، تتذكركم أرهقت عامل النقاشة في اختيار درجة السيمون تلك، مروراً بالكرانيش البيضاء، التي كانت تفصل السقف عن الحوائط، ذات الزخرفة البارزة الدقيقة والأرضيات الخشبية البنية، التي أصرت أن تكون على أعلى جودة، حتى وإن كان ذلك يعني أضعاف التكاليف.

لم تكن تبالي على الإطلاق بتكلفة أي شيء، بل كانت تؤكد لنفسها دوماً أن "الغالي للغالي"، أما الأثاث فقد غلب عليه الطابع المودرن، وقد أتت به من معرض "فِندى" الإيطالي، أحد أشهر مصممي الأثاث في العالم.

كان الفراش ذا مسند جلدي أبيض عالٍ، على شكل مربعات متصلة ببعضها البعض، ويواجهه على الحائط المقابل "شيزلونج" كابيتونيه قطيفة بلون السيمون، وعلى جانبي الفراش وضع اثنان كومودينو أبيض، يعتليهما أباجورتان أسطوانيتا الشكل. أما الستائر فكانت قصة أخرى، فقد بدلتها عدة مرات قبل أن تقتنع بتلك الستائر المعلقة الآن، والمكونة من الاورجانزا البيضاء والسيمون، والتي تساقط عليها خيوط من الكريستال بألوان مماثلة.

كانت تبتسم- تماماً كما تبتسم الآن- ابتسامة تملأها السخرية من نفسها، كلما تذكرت كم أهدرت من الوقت والجهد في انتقاء كل تلك التفاصيل، وكأنه قرار مصيري قد يترتب عليه عواقب وخيمة.

لم تكن تعلم حينها، أنها قد اتخذت القرار المصيري سلفاً وانتهى الأمر، وأنها يوماً ما ستواجه كل تبعاته وعواقبه. حررت هذه الخاطرة من سجنها، تنهيدة توارت بأعماقها زمناً طويلاً، انتهت بآهةٍ جريحة تنزف ذكريات، وكأن سكين الماضي الحادة لا زالت مغروسة بها، فعاودتها مشاهد ليلة أمس وأحداث مضى عليها ما يقرب من ثلاثة أعوام.

أكتوبر ٢٠١٤

كانت "زينة" تبلغ من العمر الحادية والعشرين سنة، وكانت آنذاك طالبة في السنة قبل النهائية بكلية الصيدلة بإحدى الجامعات الخاصة، ومنذ وطأت قدماها أرض الحرم الجامعي، كانت محط أنظار وإعجاب، بل انبهار جميع الطلاب، الفتيات قبل الفتيان، فلا يلفت نظر فتاة شيء في هذا الكون، أكثر

من مشهد لفتاة أخرى تفوقها جمالاً وأنوثة!!!، فكان الجمال عندها قد وصل إلى حده ومنتهاه، وبلغت الجاذبية ذروتها

فكانت طويلة القامة، ذات عود ممشوق مشدود، وخصر نحيل وشعرها الأشقر المموج ينسدل حتى أسفل ظهرها ويحاوط بهمجية وجهها الوردي، فتبدو رأسها كقرص شمس ملتهب، وعيناها السوداوان الواسعتان برموش كثيفة، يسكنهما بريق أخَّاذ يكشف عن ذكاء حاد وطموح لا نهائي، فتبدوان عن قرب كسماء ليلة شتوية، وقد سكنتها نجمة متلألئة.

كانت هادئة الطباع، قليلة الاختلاط بباقي الطلاب، اللهم إلا القليل منهم، ممن اتخذتهم أصدقاء لها، وحتى مع هؤلاء القلة القليلة، كانت نادرة الحديث والثرثرة، تكتفي بالإنصات وإرسال ابتسامات باهتة لا يستدل لها على معنى، حتى إن أغلب من حولها اتهموها بالغرور والكبر والتعالي كونها فائقة الجمال، فلمَ تتنازل وتتواضع وتختلط بهم، فمن المؤكد أنهم في أعينها وبمقاييسها رعاع.

وبالرغم من "أن بعض الظن إثم" فإنه في حالة "زينة" كان ظناً في محله، يستند على الكثير من الدلائل والبراهين، وكان أقوى تلك الدلائل قصتها القصيرة مع زميلها "نادر".

كان "نادر" شاباً جذاباً بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، فقد كان فارع الطول، ذا بنية رياضية قوية، ووجه أطلت عليه شمس مصر الأصيلة فتشبع بسمرة بلاده الفريدة، كانت تغلب على ملامحه سمات الطيبة والنبل، وتعكس مرآة عينيه روحاً حلوة، وطباعا ملائكية، وما أن يخطو بين جميع زملائه وأصدقائه- من الجنسين- حتى تلمس في خطاه الثقة والكبرياء، فتجول بخاطر الفتيات كلمات الشاعر المبدع إبراهيم ناجى والتي تغنت بها كوكب الشرق أم كلثوم:

أين من عيني حبيب ساحر
فيه نبل وجلال وحياء
واثق الخطوة يمشى ملكاً
ظالم الحسن شهى الكبرياء
عبق السحر كأنفاس الربى
ساهم الطرف كأحلام المساء

ومن بين كل الفتيات اللاتي كنّ يتمنين على مدار سنوات الدراسة، أن ينعم عليهن "نادر" بنظرة خاطفة أو يغدق عليهن بحديث- حتى وإن لم يتعد بضع كلمات- لم ينجذب لأحد سوى "زينة"، حتى تطور هذا الانجذاب مع الوقت إلى حب، عندما أطلق كيوبيد سهمه في اتجاه نادر فأصابه، وَيَا ليته ما أصابه، فكيوبيد كما يُعرف في الميثولوجيا الرومانية، هو ابن الإلهة فينوس، وقد اشتهر بحمله للسهم، وغالبا ما كان يصور كطفل صغير- قليل الحظ- في هيئة ملاك بجناحين ومعه سهم الحب، وكان يصور أحياناً أعمى كرمز على أن الحب أعمى وأننا لا نختار من نحب.

تلك الأفكار الأسطورية، أدرك صحتها نادر متأخراً، بعد أن كان الأوان قد فات. بعد أن صار أمام "زينة" كالطفل الصغير، يعميه حبه الجارف لها عن رؤية حقيقتها على مدى الأعوام الثلاثة الأولى بالكلية.

فبالرغم من أنه أحبها منذ البدايات، إلا أنه لم يفصح عّن هذا الحب - الذى جعل من قلبه سكناً دائماً لا يتسع لشيء آخر في الوجود- إلا في بدايات العام الدراسي الثالث، حيث أنه اكتفى طوال الثلاثة أعوام الأولى باختلاس النظر إليها كلما أمكنه ذلك وتتبع تحركاتها من بعيد وإلقاء السلام عليها بين الحين والآخر وتبادل الحديث معها لدقائق معدودة كلما تمكن من استجماع

كل رصيده من الشجاعة، أبقى كل مشاعره تجاهها في طي الكتمان، غير متخوف من أن يأتي من يختطفها على حصانه الأبيض ويسكنها قصره البعيد، فهي بالكاد تتحدث إلى أحد أو تختلط بأحد، وكان يفسر ذلك على عكس الآخرين، بأنها خجولة ومنطوية، فلمَ الخوف والقلق إذن، كل شيء يسير على خير ما يرام، ويوماً ما حين يتأكد من قدرته على التقدم لطلب يدها سيصارحها بكل شيء، ففكرة أن يرتبط بها رسمياً وهو لا يزل طالباً بالجامعة ستكون بالتأكيد فكرة مرفوضة من جانب أهله وأهلها.

وعلى الصعيد الآخر، فهو يرفض كلياً فكرة أن يرتبط بها بشكل غير رسمي فيجرحها أي مَنْ كان بكلمة واحدة، فتصبح في موقف دفاع عن نفسها، لا لم يكن ليقبل ذلك، على الرغم من أنه كان بأفكاره المثالية الأفلاطونية تلك، موضع سخرية واستهزاء من أصدقائه المقربين الذين أطلعهم على مشاعره تجاهها. حتى كان يوم، وصل إلى مسامع "نادر" أن أحد المعيدين بالكلية ينوى التقدم لخطبة "زينة"، فارتعد خوفاً من فكرة أن تضيع من بين يديه ويرتبط اسمها باسم رجل غيره، فدفعته تلك الخاطرة إلى العودة مسرعاً إلى منزله بمدينة نصر، صعد السلم وأنجز كل درجتين في قفزة واحدة، حتى وصل إلى منزله في الدور الثالث، وما إن فتح الباب حتى صاح:

-"ماماااااا... إنت فين؟... يا ماماااااا ".

-"ايوه يا نادر...أنا في المطبخ يابنى".

فدخل عليها قائلاً:

-"سيبك من المطبخ... مش وقته خالص... أنا عايزك ضروري".

-"لا مطبخ إيه اللي اسيبه، لازم أخلص الغدا... أخوك زمانه جاى من المدرسة، ميت مالجوع وبعدين الملوخية تفور لو سبتها ولازم أعملها الطشة".

-"يا ماما ارحميني طشة إيه وملوخية إيه.. بقولك عايزك في حاجة مهمة.. وبعدين سامر مش هيجراله حاجة لو صبر شوية... ما كان بيصبر غصب عنه واحنا مستنيين بابا الله يرحمه".

-"شكلك جد كده ليه... في إيه يابنى وغوشتنى...وآدى الملوخية ". وأطفأت البوتاجاز...

-" تعالى ندخل جوه عندي.. ".

ودخلا معاً إلى غرفة نومها المتواضعة.. كانت إحدى تلك الغرف التي لا تراها في مجلات، ولا صالات عرض الأثاث الفخم، بل كانت عاجية اللون بسيطة الطراز.. فراش، دولاب، اتنين كومودينو تكدست فوقهما علب الأدوية والمناديل الورقية وريموت التلفاز، ونظارة القراءة ومصحف، وثمة تسريحة بمرآة مستطيلة تناثرت على سطحها فرشاة شعر، وبعض زجاجات البرفان شبه الخاوية، وعلبة مجوهرات لا تحتوى سوى على بعض الحلي الذهبية وقطعة أو اثنتان من الألماس. فوالدته مدام "عواطف" لم تبال يوماً بالبهرجة والمظاهر، فكان لأولادها دوماً الأولوية في كل شيء، حيث كانت تنفق على احتياجاتهما كل ما تملك يداها.

جلست على طرف فراشها، وخبطت عليه بهدوء داعية "نادر" للجلوس بجانبها:

-"كلى آذان صاغية... في إيه يا حبيب أمك.. مالك؟ ".

-"ماما.. بدون مقدمات.. أنا بحب بنت دفعتي اسمها زينة وعايز أخطبها.. ولو سمحتي بلاش بقى قصة إنت صغير وطالب والكلام ده لإني عارفة.. أنا مكنتش ناوي أخطبها دلوقتي بس عرفت إن فيه معيد هيتقدملها ولازم الحق".

-" هههههههه بتحب يا نادر!؟!... ابني أنا البكري بيحب...!!!".

لم يجب نادر، بل التزم الصمت ونظر إليها مباشرة في انتظار رد فعل عملي، بعيداً عن عبارات والدته العاطفية.

-"يابني بدري أوى... حتى لو أنا وافقت، أهلها مش هيوافقوا... هو في ناس عاقلة تجوز بنتها لطالب لا اشتغل ولا له مرتب".

-"يا ماما خطوبة خطوبة... مين قال جواز بس، أخطبها دلوقتي وبعدين بقى نبقى نشوف موضوع الجواز".

-"طب هي عارفة إنك بتحبها... مالي إيدك منها... بتحبك هي كمان".

كما لو أنه يوم الصمت العالمي، فقد صمت نادر مرة أخرى، فليست لديه إجابة لهذا السؤال الوجيه؟

-"إيه سكت ليه؟.. ما تتكلم مالي إيدك منها!؟".

أجاب بصوت خافت:

- "هي أصلاً متعرفش إني بحبها".

-"عايز تطلب إيد بنت متعرفش هي كمان بتحبك ولا لأ... إنت بتهزر...".

وهنا أفاق "نادر" من نوبة تهوره، فيم كان يفكر!؟ بمَ كان يفكر.... أنه سيطرق باب منزلها دون سابق إنذار، مصطحباً والدته، حاملاً الورد والتورتة ليقابله أهل "زينة " بالترحاب والتهليل!!!

-"خلاص يا ماما هكلمها، بس مبدئياً إنتي موافقة.... إنتي عارفة يا ست الكل إني هعتمد عليكى في المهر والشبكة والذي منه... والشقة الحمد لله موجودة... الله يرحمه بابا جابهالي وتمام ".

ودون أن ينتظر إجابة أو تعقيب، أهداها ابتسامة عريضة، وعانقها بقوة وطبع قبلة على رأسها وخرج متجهاً إلى حجرته.

ظل متيقظاً طوال الليل، يتحدث إلى نفسه، كيف سيفاتحها؟.. كيف ستكون ردة فعلها إزاء مشاعره تجاهها!؟ هل ستقبل به حبيباً وزوجاً وهي التي لم تمنحه أكثر من بضع عبارات مقتضبة بين الحين والآخر!؟.

ولَم ينتشله من دوامة الأسئلة التي كادت أن تغرقه في بحر الاحتمالات، سوى أشعة الشمس، وقد اخترقت زجاج نافذته لتعلن عن بدء يوم جديد، يوم يتحدد فيه مصيره إلى الأبد، "أن يكون أو لا يكون". قام وأخذ حمامه الدافئ وارتدى ملابسه واتجه إلى الكلية، بحث عنها بقلبه لا بعينيه، فالقلب دليل المحبين، وما إن وجدها حتى توجه صوبها، ومع كل خطوة، كاد يشعر بقلبه ينتفض خلف أسوار صدره، لعله يتحرر ويفر إليها حاملاً معه عشقه لها.

وقف أمامها وقد تبخرت كل الكلمات والمعاني التي أمضى ساعات ليله ينتقيها وتطايرت معهما كل الخواطر، لكنه سرعان ما تمالك نفسه:

- "زينة ممكن عشر دقايق من وقتك".

نظرت إليه بعينين سكنتهما اللا مبالاة:

- "خير في حاجة؟".

-"محتاج أتكلم معاكي في حاجة مهمة".

-"اللي هي إيه؟".

-"هتعرفي.. ممكن بس عشر دقايق لوحدنا؟".

فأجابت ببرود:

-"أوك...".

وانصرفا معاً لركن بعيد، وبصوت مرتعش أفضى إليها بما أخفى عليها طوال الثلاثة أعوام الماضية، وكيف أنه آثر الصمت من أجلها، وأنه لا يتمنى شيئا في الوجود سوى تمضية العمر معها، وأنه تحدث إلى والدته وحظي بمباركتها، وأنه على أتم استعداد للتقدم طالباً يدها.

وهنا استوقفته:

- "مستعد تماماً تتقدم لي!؟! طيب تمام... مستعد للجواز إزاي بقى...!؟".

أقلقته نبرة صوتها الهادئة، ولكن ما أقلقه أكثر، هو أنها لم تعقب على اعترافه بحبه لها، ولم يبد عليها أي اهتمام أو فرحة ولَم يستوقفها شيء من حواره سوى كيفية استعداده للزواج.

-"يعنى أنا الحمد لله عندي شقة ١٣٠ متر في مدينة نصر، كان جهالي أبويه الله يرحمه، وأمي الله يكرمها هتتكفل بالمهروالشبكة.... وكده يبقى تمام".

-"هو إيه ده اللي تمام!؟... شقة في مدينة نصر !!! وكمان ١٣٠ متر... أنا أسكن في حق!؟!

لما زينة جمال الدين تسكن في حق أمال مين يسكن في فيلا!؟!".

-"يا زينة... دى مجرد بداية.. الفيلا أكيد في يوم من الأيام هنجيبها سوا... هنتعب ونجيبها مع بعض".

-"هههههه.... فكرتني بالأفلام الأبيض وأسود... نبنى بيتنا سوا... طوبة فضة وطوبة دهب... والجو ده... يا نادر وأنا اللي زيي تتعب ليه أساساً... أنا اتخلقت عشان أرتاح وغيري يتعب عشاني... وبعدين اللي عنده شقة كده لا هيقدريدفع مهري ولا يجيب الشبكة اللي تليق لي".

إن لم يكن هذا هو الغرور بعينه، فماذا عساه يكون؟... من بين كل السيناريوهات التي جالت بخاطره لم يكن ليتصور هذا السيناريو. ظن وهو يسير نحوها، حاملاً قلبه في يده أنه سينعم بحياة أبدية معها، لكنه لم يكن يعلم أنه يحمله لها قرباناً، كي تقبض كلماتها القاسية روحه، فتزداد روحها الشريرة جبروتاً.

تركها ورحل، رحل قبل أن تتساقط دموعه أمامها، فتسقط معها هيبته وكرامته وكبريائه. وطوال عام كامل، ظل يتفادى رؤيتها والاصطدام بها قدر

استطاعته، في محاولة شاقة لاستعادة توازنه، استعادة كيانه، استعادة قلبه، استعادة الحياة وربما استعادة نادر. كم تمنى لو أن جراحاً ما، مد يده الماهرة لينتزعها من داخله كما ينتزع سرطاناً خبيثاً من الأحشاء، ويلقى بها بعيداً إلى الجانب الآخر من العالم، ولكن أي جانب آخر!؟... هي هنا... أمام عينيه، وأخبار خطبتها المتوقعة من "باهر" المعيد حديث الساعة... فهو في نظر الجميع صيد ثمين.. فهنيئاً لها بما اغتنمت... رجل في الخامسة والعشرين من عمره، ابن أحد أبرز رجال الأعمال، والذي يمتلك أكبر مصانع للأسمنت في مصر... يقود سيارة مرسيدس رمادية من فئة "السي كلاس"، قد اشتراها له والده هدية تخرجه منذ عامين.

وبالرغم من أن "باهر" لم تكن تنطبق عليه صفات الوسامة كما تراها الفتيات، كونه بديناً، ذا عينين ضيقتين، وأنف عريضة ورأس قد تسلل إلى أجزاء منها الصلع برغم صغر سنه- فإنه كان يعوض ذلك بأناقة فائقة، فلا يرتدي سوى أشهر ماركات الملابس العالمية، ولا يضع إلا أغلى العطور، ولا تلتف حول معصمه سوى أبهى الساعات... إحداها كانت "روليكس"، وكاد قلب أصدقائه أن يتوقف حين ارتداها أمامهم أول مرة، كان ينفق المال بلا تفكير أو حساب كأنها خزائن لا تفرغ... ولمَ تفرغ وهو على يقين أن والده سيعود ويملأها له، كونه ابنه الوحيد، فيظل يغدق على كل أصدقائه ليس كرماً منه، وإلا كان تذكر أن يمن على العشرات من المساكين الذين تقع عيناه عليهم في الشوارع كل يوم، بل كان تباهياً وتعالياً وتفاخراً لَيْس أكثر، حتى حين وقع اختياره على "زينة" واتخذ قرار الزواج منها لم يكن إلا لنفس الأسباب... وهو أن يتباهى ويتفاخر باقتنائه أجمل فتاة في الجامعة... تماماً كما يتباهى بساعته وبدلته وحذائه... هكذا كانت نظرته إليها.... أحد تلك المقتنيات التي يلمحها في نافذة العرض، فتعجبه، فيشتريها وفي النهاية يلقى بها في أحد الأدراج.

ربما كان عليها أن تدرك تلك الحقيقة حين صارحها برغبته في الزواج منها، كان عليها أن تقرأ بين السطور.

-"بصي يا زينة... أعتقد إنك ذكية وأكيد فاهمة أنا عايزك في إيه... بدون مقدمات... إنتي عجباني.. بنت جذابة ملفتة جميلة شيك... الكلية كلها بتتكلم عّنك وعن جمالك... عايزك تحددي ميعاد معاهم في البيت علشان أجيب والدي ووالدتي ونطلب إيدك... الماديات كلها مفيهاش مشكلة... فيلتي كبيرة في التجمع الخامس شطبيها وافرشيها على ذوقك... شبكتك هبعت أجيبها من بلجيكا، والفرح نعمله في جي دبليو ماريوت، وشهر العسل نروح مثلا تايلاند وسنغافورة وماليزيا أو حتى نلف أوروبا، نقعد لنا شهر ولا حاجة... ولما نرجع تكون عربيتك الجديدة جاهزة.... متهيألي كده غطيت كل حاجة ولا إيه؟".

كان يتحدث بثقة فمن قراءته لشخصيتها، كان يعلم أنها لا تحب شيئا مثل المال، فلم ير كغيره في بريق عينيها ذكاء، بل رأى طمعاً وشرهاً لملذات الحياة، أما هي فقد قرأت في عينيه ما أقلقها، فقد خلتا تماماً من نظرات الحب والعشق والهيام، حتى كلماته المقتضبة وعباراته الجافة أدهشتها وربما أهانتها قليلاً، لأنها كانت تريده ملكاً راكعاً أمام حسن مليكته وليس ملكاً مستبداً، إلا أنها وافقت، فقد وجدت غايتها المادية المنشودة أما الركوع فسيأتي لاحقاً.

تلك الخاطرة جعلتها تبتسم أمامه ابتسامة خبيثة وأجابت:

- "لا كده تمام، إنت غطيت كل حاجه تقريباً،، باقي بس شوية تفاصيل صغيرة في دماغي تتظبط في وقتها... هحددلك معاد في البيت وأرد عليك".

تمت الخطبة سريعاً وارتدت "زينة" فستان كلوش قصير بدون حمالات ذا لون كريمي ومطرز بخيوط ذهبية، أظهر جميع مفاتنها، مما أسعد "باهر" للغاية وجعله يسير بين الحضور ممسكاً يدها بتفاخر كأنه يعرض عليهم أحدث ممتلكاته!!!.

كم كانا متشابهين ومتوافقين تماماً، فهي أيضا سارت بين المدعوين تستعرض شبكتها المبهرة... خاتم ألماس ذو حجر بحجم ثلاثة قراريط، محاط من كل جانب بفصين، حجم كل منهما نصف قيراط، أما المحبس فكان دبلة ألماس ذات خمسة فصوص.

ظلت طوال حفل الخطوبة، تحرك يدها يميناً ويساراً حتى يراها الجميع، وكلما اقتربت منها إحدى صديقاتها أو قريباتها تظاهرت بترتيب خصلات شعرها أو مسح وجهها، كي تضمن أنهن قد رأوها بوضوح.

كانت كلما لمحت نار الغيرة تشتعل في أعينهن ازدادت بهجتها وازداد يقينها أنها أحسنت الاختيار.

ولكن سرعان ما تسلل الشك إلى نفسها وتزعزع يقينها، ربما لأنها لم تجد من الأدلة ما يكفي لتجعلها تؤمن بحبه لها إيماناً قوياً راسخاً، فصار إيماناً ضعيفاً متصدعاً.

غلب عليها هذا الشعور طوال فترة الخطوبة التي دامت قرابة عام، أغدق عليها خلالها كل ملذات الحياة من هدايا ثمينة: برفانات، حلى ذهبية وألماس من أكبر جاليريهات المجوهرات، ومقابلات غداء وعشاء في أفخر المطاعم والفنادق.

ولأنه تحلى كوالده بعقلية رجل الأعمال الذي يستثمر أمواله ولا يهدرها وينتظر العائد أضعافاً مضاعفة، فقد حاول مراراً وتكراراً أن يتسلم أرباحه على هيئة قبلات ساخنة أو أحضان مثيرة، لعل الحظ يحالفه فتتطور الأمور لما هو أدنى من ذلك!!... إلا أنها كانت دوماً تتمنع وتتهرب بدهاء، ليس دفاعاً عن شرف أو قيم أو مبدأ، بل كانت فطنتها التي أكدت لها أنه لو بلغ مراده فلسوف تفشل خطتها المحكمة، ولن تطول هي الزواج منه، بالإضافة إلى أن الأنثى داخلها افتقدت في محاولاته إلى الشعور بالحب والاحتياج لها، بل كانت لا

تتعدى ذكرا يرغب في أنثى، وأي أنثى كانت ستفي بالغرض. ذلك الهاجس أغضبها وجعلها تتمرد وتبخل.

ظلت كلما التفتت إليه طوال الخطوبة، تفتش في نظراته الباردة لها عن فتات مجرد فتات للهفة واشتياق العاشق الولهان، فكانت تعود من رحلة بحثها الطويلة فارغة اليدين.

وظلت تتوق للحظة، تتحسس فيها أصابعه الدافئة يديها برفق وحنان، لتجد طريقها بين أصابعها، فتتشابك أيديهما وتهمس لبعضها البعض بكل ما يخجل اللسان أن يبوح به.

واشتاقت للحظة جارفة، يجذبها فيها إليه، ويهمس لها "بحبك" بصوت خافت وشفاه ترتجف، خشية أن تتسلل من بينها كلمات حبيسة لو انطلقت لأذابت جبال الجليد بداخلها. لم تكن تعلم أن بداخلها ذلك التعطش للرومانسية وذلك الاحتياج للحب. حب!!! منذ متى وتلك الكلمة تعنى أي شيء لها!؟، ألم تحذفها من قاموس حياتها منذ أمد بعيد.. لو أن الحب يعنيها إلى هذا الحد فلم اعتصرت قلب نادر بين يديها؟، كأنها تطبق على قصاصة ورق بلا أية قيمة، لتلقى بها في أول صندوق قمامة تصادفه. لم استباحت أن تقتلع الأحلام الوردية من بستان مستقبله وتركتها تذبل أمام عينيه، ولَم ذبحت بدم بارد روحه التي أهداها إياها، حين استهانت بمشاعره وهو يراقبها من بعيد على مدى عام كامل بعدما تمت خطبتها، حتى رسب في امتحانات السنة الرابعة، وبرغم اكتشافها المفاجئ لهذا الجانب منها، فإنها اتخذت قراراً بأن تنهى ما قد بدأته وتزوجت "باهر" في بداية السنة النهائية.

ربما عاد هذا القرار إلى اعتقاد البعض أنه بإمكانهما تغيير الكثير من الأمور التي تؤرقهما والعيوب الواضحة التي يرفضونها بعد أن يتم الزواج، إلا أن الحقيقة أن لا شيء يتبدل، بل يزاح الغطاء عن المزيد والمزيد منها.

تم حفل الزواج الأسطوري وسافرا معاً في جولة حول مدن أوروبا الجميلة... هكذا تصورت هي، أما هو فقد وجدها فرصة ذهبية للتجول بين سيدات أوروبا الجميلات.. فطوال الرحلة التي دامت ثلاثة أسابيع، لم يغض بصره ولو مرة واحدة عن كل فتاة جذابة تثير غريزته كرجل أو بالأصح كحيوان، بل كان يرتشف بعضهن حتى الثمالة، بعد أن يتركها أحياناً في "السويت" الخاص بهما في الفندق، متحججاً بعدم رغبته في النوم فيذهب ليلتقي بهن ويأخذ منهن ما يشتهي ثم يدفع لهن بسخاء مقابل احتياجاته الحيوانية. حتى كانت ليلة، استدركت فيها "زينة" ما يحدث، حين عاد وقد فاحت منه رائحة الخمر والنساء والزنا، فانفجرت صارخة في وجهه توبخه على فعلته الشنعاء:

- " بتخوني يا باهر!!... إنت تخوني أنا!!... تخون زينة!!! إنت إيه يا أخي!؟... إزاي تعمل كده!؟... بتخونى في شهر العسل!!... ناقصك إيه عشان تدور عليه بره!؟... أمال لما نرجع هتعمل فيه إيه!؟.... لما يمر على جوازنا سنين هتعمل إيه!؟... إنت حيوان... فعلا حيوان".

فما كان منه إلا أن صفعها صفعة قوية طرحتها أرضا، ثم استطرد قائلاً ببرود شديد كأن شيئاً لم يكن:

- " أولاً وإنت بتكلميني صوتك ميعلاش أبدا، وتاخدي بالك كويس من كلامك... الغلط ممنوع علشان اللسان الطويل أنا هقطعهولك حبيبتي". وتحسس خدها وشعرها بظهر يده وهو يبتسم ابتسامة احتوت جبروت الكون داخلها.

-"ثانياً... أنا يا حبيبتي أعمل اللي أنا عاوزة... عاجبك بقى مش عاجبك دي حاجة تخصك... ومتهمنيش....

ثالثاً..إنتي اتجوزتيني عشان غنى وهحقق لك كل اللي انتي عاوزاه ومعتقدش إني قصرت معاكي.... شبكة تحفة وفرح يجنن وشهر عسل مكنتيش تحلمي بيه وفيلا وعربية...

وأنا اتجوزتك عشان كنتى أحلى بنت في الكلية، والكل كان عايزك ومينفعش باهر مياخدش اللي هو عايزه... يعني صفقة أنا وإنتى دخلناها وإحنا عارفين كويس أوى مكاسبنا إيه... لما نخسر شوية مجراش حاجة ولا إيه".

ومد يده ليرفعها إليه فأزاحتها بعيداً عنها، واستندت بيديها على مقعد بجوارها حتى وقفت تواجهه:

- "طلقني".

-" هههههههه.. وماله.. حبيبتي أنا عامةً مش خسران.. إنتي بقى خسرانة كتير... يعني ترجعي من شهر العسل مطلقة.... مش حلوة في حقك، الناس تقول إيه؟".

-" مش مهم... مش فارق معايه حاجة".

-"وأنا مش هطلق.. إذا كان ولا بد اخلعيني بس اللي تخلع ملهاش حاجة.... يعني هتطلعي من غير حاجة".

تلك الحقيقة أيقظتها من نوبة الكرامة والكبرياء التي اعترتها على غير عادة، فخيم عليها الصمت، وابتلعت داخلها كل العبارات التي وقفت حائرة على أطراف لسانها وتوجهت إلى الفراش. لم يغمض لها جفن، وظلت تفكر طوال الليل، ماذا تفعل!؟

مرت الأيام المتبقية من رحلتهما رتيبة مملة قاتمة، عادت معه بعدها إلى القاهرة، وقد اتخذت قرارها أنها لن تخسر، بل ستربح من وراء تلك الزيجة الكثير والكثير.

تركته يعيش حياته كما يرغب ويفعل بها كل ما يحلو له، فقد أخرجته من معادلتها الحسابية بعدما اعتبرته أقل الخسائر وعاهدت نفسها أن تكون آخرها. تركته يخونها ويعود إليها ثم يعود ويخونها، وتفرغت هي لإنهاء دراستها حتى مر العام الدراسي بسلام وحصلت على بكالوريوس الصيدلة.

كانت تلك نقطة جوهرية لاستكمال خطتها لجمع المال وتأمين المستقبل، فأقنعته بعد عدة ليال متتالية، دللته خلالها وغازلته وأرضت جميع احتياجاته فيها، كما تفعل فتاة الليل المحترفة مع أفضل زبائنها حتى يصير كالخادم تحت أرجلها، أقنعته بأن يُمَوِّلَ لها مشروعها الخاص، فافتتح لها سلسلة صيدليات تحمل اسمها في أرقى أحياء القاهرة الكبرى.

وسرعان ما اكتملت أركان الخطة، وصارت تحمل ابنه في أحشائها

الآن، صارت في الموقف الأقوى فالولد في قوانين اللعب "بيقش"... فَلِمَ لا تشعر إذن بأية سعادة!؟، ولم تعد تتذكر أخر مرة ابتسمت فيها أو ضحكت من قلبها!؟.. ماذا ينقصها!؟ أهو الحب؟، أهو الاهتمام؟، أهو الحنان؟، أهو المودة والرحمة؟... أهو الشعور بأنها أكثر من مجرد إحدى المقتنيات داخل هذا المنزل الشاسع!!؟؟

ولكنها كانت صفقة واضحة منذ البدايات، ارتضت بشروطها وبنودها وثمنها، فَلِمَ التراجع الآن؟... وراودها سؤال "ماذا لو كانت اختارت نادر وتزوجته!؟.... يا ترى أين هو الآن؟".

وفى إحدى الأمسيات وبينما هي تسير نحو سيارتها الـ"جيب" عائدة من زيارة تفقدية لفرع صيدلياتها بمدينة نصر، فإذا بها تصطدم بنادر أمامها فتسمرت في مكانها:

-"نادر.... إزيك... إيه اللي جابك هنا؟... إيه الصدفة الغريبة دي!؟".

-" أهلًا زينة كنت جاي أجيب دوا ليه، دايخ عليه في الصيدليات مش لاقيه وقالولي دوايه عندك... قصدي الدوا متوفر في صيدليتك".

-" طبعاً طبعاً... يا خبر تعالى هاجي معاك".

-"لا مفيش داعي شكراً.. كتر خيرك".

-" نادر هاجي معاك إنت ناسي أننا زمايل ولا إيه؟".

كم شعرت بالغباء بعد انطلاق تلك العبارة منها... زملاء... كم هي خرقاء!!!

فأتى رده ليؤكد شعورها:

- " لا مش ناسي يا زينة".

-"خلاص يبقى هاجي معاك".

وسارا معاً حتى وصلا إلى الصيدلية، واشترى الدواء، وبينما هو يمد يده ليصافحها، استطردت:

- "نادر إنت اتخرجت مش كده؟".

ويبدو أنها أصرت أن تبدو غبية تلك الليلة، فقد أتت إجابته:

- "لا لسه... إنت ناسية انى سقطت سنة... أنا في خامسة لسه".

إحْمَرَّ وجهها خجلاً وندماً حين تذكرت أنها كانت سبباً في ذلك التأخر ووجدت نفسها تسأله:

- "..... مممم..... وراك حاجة دلوقتي؟ ولا ممكن أعزمك على حاجة في أي كافيه؟".

-"مفيش داعي أعطلك... متشكر للعرض... عن إذنك... تصبحي على خير".

وما إن أدار ظهره وهمَّ بالرحيل، حتى وجدت نفسها تمسك بكم قميصه وتجذبه بعفوية نحوها، فالتف ليواجهها وقد امتلأت نظرته بالدهشة، فاكتسى وجهها بحمرة الخجل للمرة الثانية:

-"آسفة.... طيب أقلة إديني نمرتك عشان أبقى أطمن على صحتك".

كان على وشك أن يطلق ضحكة ساخرة... تطمئن عليه!! متى ومن أين أتاها هذا القلب الحنون!؟... ألم يكن من الأحرى أن تطمئن عليه حين قتلته منذ ما يقرب من عامين ونصف!!! ألم تتأخر قليلاً.

-"نمرتي!!!".

-"آه".

ودون أن ينطق بكلمة أخرى أعطاها الرقم الذي سجلته على هاتفها ورنت عليه.

-"سجل نمرتي يا نادر... باي".

وسارت مبتعدة. لم ينم أي منهما تلك الليلة.... هو لعن الصدفة التي جعلته يراها من جديد، أما هي فشكرتها.

وفى صباح اليوم التالي، تحسست بيدها جانب الفراش الخاص بزوجها فوجدته فارغاً بارداً مرتباً، فأدركت أنه لم يقض الليلة في فراشه، كما جرت العادة في أغلب الليالي، فلم تبال كثيراً، وقبل أن تنهض من الفراش، أمسكت بهاتفها واتصلت بنادر:

-"ألو نادر... صباح الخير... إزيك...".

-"صباح النور...".

وصمت..

-"نادر.. ينفع نتغدى مع بعض النهارده...؟".

-"ليه!؟".

سؤال لم تكن لديها إجابة له، كما لم تكن لديها إجابات منطقية للائحة طويلة من الأسئلة... لماذا أصرت على الاحتفاظ برقم هاتفه بالأمس؟، ولماذا

اتصلت به اليوم؟، ولماذا تُلِّح عليه أن يتقابلا؟، وماذا تريد منه؟، وإلى أين يأخذها اندفاعها!؟

-"يعنى يا نادر... من باب زمايل قدام... في مشكلة؟".

-"لا مفيش... امتى وفين".

وفى غضون ساعات، كانا جالسين أمام بعضهما البعض في أحد مطاعم "فندق فيرمونت" الإيطالية. لم تكف عن الكلام... أخذت تحكى له كل ما مربها على مدى العامين ونصف الماضيين، دون أن تتطرق ولو من بعيد لخيانات زوجها ونزواته، أما هو فقد ظل الصمت حليفه، فقد احتشدت وفود العبارات والكلمات المحظورة لامرأة متزوجة، على أطراف لسانه، دون أن تتلقى الإشارة الخضراء كي تعبر جسر المباح والممكن!!!

كانت يداه ترتجفان وتتصببان عرقاً، وكان قلبه يدق كدفوف حفل زفاف صاخب، واحتشد الكلام المحظور على طرف لسانه، قاوم رغبة ملحة في أن يعانق ذكريات عشقه السالف لها، ويضمها بقوة إلى صدره دون فراق.. رغبة ملحة في أن يقبل دون توقف شفتاها، أيام وليال قضاها يحلم فيها بزواجه منها.. رغبة في أن يبكى العمر الضائع ويصب دموع الماضي المكروب بين يدي الحاضر المتبسم.

تمنى لو أن الزمن يقف عند تلك اللحظات التي جمعت بينهما الآن، وأن يخلو الكون من كل البشر إلا منهما، فلا عينا ترمقهما ولا لسانا يغتبهما. حاول جاهداً استدعاء كل مشاعر البغض والضغينة تجاهها والتي اختزنها داخله يوماً بعد يوم... كرر المحاولة دون جدوى.. أين تلك المشاعر منه الآن!؟... كيف خذلته وتخلت عنه الآن وهو في أشد الحاجة إليها!؟

وكأن "زينة" كانت تقرأ ما يجول بخاطره فقد سألته فجأة:

- " إنت كرهتني يا نادر.. قدرت تكرهني بعد ما اتخليت عنك...؟".

واستكملت حديثها موضحة، وكأنها تعلل بعد أعوام ما بدر منها:

- "بس أنا متخلتش عنك يا نادر، أنا بس كنت متخيلة إن سعادتي في حاجات معينة، وكان من حقي أدور عليها واختارها لما ألاقيها.. وعمري ما وعدتك بحاجة وخليت بيك.. إنت حبيتني حب من طرف واحد... حاجة مليش ذنب فيها".

-"زينة... إنتي طلبتي تقابليني ليه؟، عايزة مني إيه؟... لو على قصة زمان أنا محقوق لنفسي قبل ما أكون محقوق ليكي... إنتي صح، أنا غلطت في حق نفسي وحبيت زي ما قلتي من طرف واحد.. ودفعت التمن.. إنتي ملكيش دعوة ولا مديونالي بأي تفسير... وإنتي الحمد لله... بِسْم الله ما شاء الله... لقيتي سعادتك وأخدتي من الدنيا كل حاجة... يبقى خلاص".

تلك العبارة الأخيرة أصابتها في مقتل، ولولا أنها تعرف طباعه النبيلة حق المعرفة وتدرك أن هذا ظنه الصادق في حالها الآن، لقالت إنه يستهزئ بها ويسخر منها، بل ويشمت فيها. فهي بالطبع لم تجد السعادة وقطعاً لم تأخذ من الدنيا كل شيء، بل إنها تفتقر افتقاراً فادحاً إلى ما تدرك الآن أنه أهم ما في الحياة.... الحب!!!!

-"عندك حق يا نادر... مظبوط".

وانتهى اللقاء الأول... تكررت بعده المحادثات التليفونية بينهما بصفة منتظمة شبه يومية، وتجددت اللقاءات في الأماكن العامة على مدى أربعة أشهر.

لم يضع خلالها، أي منهما تلك العلاقة، التي تطورت سريعاً بينهما، في إطار معين، ولَم تقع في قاموس علاقاتهما الإنسانية تحت مسمى بعينه، حتى كانت ليلة جمعهما لقاء في أحد المطاعم الهادئة بمصر الجديدة بمناسبة عيد ميلاده.

-"كل سنة وإنت طيب يا نادر.. عقبال مية سنة".

وأخرجت من حقيبتها الشانيل السوداء هديتها له... ساعة "تيسو" رائعة الجمال.

-"وانت طيبة يا زينة.. مكنش في داعي.. إنتي عارفة الحاجات دي متفرقش معايا".

-"عارفة.. إلبسها وفرجني يلا...".

لمح في عينيها نظرة لم يرها فيهما من قبل... نظرة المحب الذي ذاب عشقاً وانصهر شوقاً... فهو يعرف تلك النظرة جيداً!!.

-"آسف يا زينة مش هقدر أقبل الهدية دي منك.. لأنها غالية ومقدرش أقبل هدية زى دي من أي ست".

-"أي ست!؟".

لماذا يصر على طعنها بكلماته الحادة؟... هل هي الرغبة في الانتقام؟

-" أنا مش أي ست.. أنا زينة يا نادر".

ومدت يدها لتستقر فوق يده الدافئة حتى أطبقت على أصابعه، فأغمض عينيه واستسلم لحلم طالما راوده في الماضي... أن يلمس يدها!، أيقظه من حلمه القصير شعوره بخاتم زواجها، فجذب يده سريعاً.

-"زينة... متهيألي نمشي... إنتي إتأخرتي.. لازم ترجعي بيتك".

-"نادر مش عايزة أرجع... خليني معاك... أنا بحبك".

كيف تمردت تلك الكلمة على كل القواعد والقوانين؟... أليست امرأة متزوجة تحكمها الأعراف والتقاليد، وفوق كل ذلك أحكام الدين؟.. كيف ضربت بكل هذا عرض الحائط وانطلقت هكذا بحرية مطلقة؟.

وأمام تلك الحرية، وقف هو متحيراً بماذا يجيبها... أيخبرها الحقيقة؟

-"زينة... أرجوكى متتسرعيش.. أنا هعتبر نفسي مسمعتش حاجة... لأني مينفعش أسمع اللي سمعته...

أولاً لإنك متجوزة ومش مستعد أكون سبب في هدم بيتك.. مش أخلاقي وإنتي عارفة ده.. بالرغم إني محبتش في حياتي حد قد ما حبيبتك.. بس ده كان ماضي وراح، ومش باقي منه غيرعلامة لجرح قديم بحسس عليه كل فين وفين..

وتانى سبب إني مرتبط ببنت زميلتي وهخطبها بعد الامتحانات واتفقنا على كل حاجة.. مقدرش أقول إني بحبها لإني نسيت قصة الحب دي.. لكن بالورقة والقلم هي مناسبة ليه وبنت طيبة وبتحبني".

وبتلك الكلمات أنهى الحوار وأنهى كل شيء بينهما قبل أن يبدأ، ورحل دون نية للعودة معها إلى المستقبل.

هزيمة شهريار..

جيهان جمال

ثمة حروف حائرة.. متسلطة الحضور.. تتوارى.. ثم تعاود المجيء على أكف الحنين خلف أسطر القصيدة، فتجدها مهما حاولت أن تهرب منها.. أو تتخطى ظلالها.. تباغتها وتقف مجاهرة في وجهها أنه لا مفر، ولا جدوى من الهروب، فتستجدى ثريا بقايا خيالات ماضٍ لن يعود.. علها تسقى أرض الكلمات قبل أن تبور، فتروى عطش الحرف، لكنهَا دوما لا تبالي، وتولى راحلة خلف مرايا الأيام.

تلك هي خيالات الظلال التي لا تحلو لها أن تأتيها إلا في ليالٍ عنيدة.. تؤرق نومهَا بحروفها المتناثرة.. فتتوه حتى يأتيها الصباح.

فتَتذكر كُلما فتحت عينيهَا لاستقبال يوم جديد.. أنه كان هناك طَيف ضيف قد زارها بليل.، وغادر مُسرعاً قبل أن تسكب حروف الشوق على روح القصيدة.. وما عاد منه غير بقايا ظلال.. لتضيع، وتفلت منها هاربة قصائد عديدة.

تحادث نفسها في انكسار يغلب على أيامهَا وتقول: لا غرابة.. فما أشبه ليلة أمس بكل الليالي الفائتة!

صباح أحد الأيام..

تنهى عَملها اليومي الشاق الذي يبدأ منذ بزوغ أمل شريد، لم تمل البحث عنه بين جنبات فجركل يوم جديد.. لتظل ثريا تؤدى كل ما عليها منذ أول أيام الزواج.

تصحو مع فجر الأيام.. ترعى أمور البيت، والأولاد، بدءا من إعداد السندويتشات.. ثم وضعها بحنان بحقائبهم المدرسية.. ثم تذهب بخطوات حانية كي توقظهم من أحلامهم البريئة، وتساعدهم على ارتداء ملابس المدرسة بعد أن اغتسلوا كما عودتهم، وكما كانت تفعل معهم أمهم.

تفعل ثريا كل ذلك وهي لازالت تصاحب تلك المقطوعات الشعرية التي كانت تسمعها عبر برنامج همسات الصباح بالراديو، أثناء إعداد وجبة الفطور، والسندوتشات لأولادها، وها هي تنهى كل هذا.. لتهرع بهم مسرعة، مستقلة السيارة الخاصة بزوجها، فهذا هو الوقت المسموح لها فيه بأخذ السيارة.. ثم تصل بهم إلى المدرسة.. تودعهم وتعود.. لتحضير الفطور لعامر.. يتناوله بسُرعة ثم يذهب لعمله بالجامعة.

تتنفس بحُرية بعد أن يخرج من باب البيت لتدخل إلى المطبخ من جديد، وتقوم بتحضير الغذاء لأولادهَا.. الذين أصر زوجهَا صعيدي النشأة أن يزيد على الولد الوحيد وسط البنات بولد ثاني.. من بعد عشر سنوات زواج أنجبا فيها ابنتين من بعد الولد الثاني ليصيرلديهما فيما بعد خمسة أبناء.. كانت أولهم ابنة رقيقة كأمها ثريا.

هذا الولد الثاني الذي ظل يتمنى مجيئه كي لا يصير أباً لولد وحيد.. يتيه بين ثلاث عورات.. كما كان يصف البنات دائما لثريا.. حين يعذبها بعتابه غير المنطقي، ويلومها حد التوبيخ على ما لا ذنب لها فيه.. بأنها أم البنات.

لم يأسف يوماً ما عن صفاقات لسانه، ويعتذر أو حتى يعترف لنفسه بأنهن بناته الهادئات المتفوقات في دراستهن.

أما ابنه الصبي فَكان هو المُدلل الوحيد في المنزل.. ليخرج الولد عن طوعها.. بعد أن تعلم التمرد عليها، وعلى أخواته البنات.. كل هذا حدث على يدي عامر بحجة أن ابنه رَجُل.

عامر لم يلتفت أنه يكرر مأساة أمه معه بشكل مختلف، وفي ظروف وزمن أشد وأكثر.

لم يدرك أنه يخلق شخصا أنانيا مثله، لكنه للأسف يختلف عنه بأنه غير مسئول.

قرر عامر أنه يريد لهذا الصبي ولنفسه صبيا آخر، وعلى ثريا التنفيذ.. ليَصيرا مع الأيام هما سنده المدخر من صلبه للزمن بعد أن يصبحا رجالا شدادا.. ظنا منه أنهما سوف يعيناه على الدنيا مع القادم من سنوات.

(٢)

يعلم أنه سوف يكبر، ويعجز، كمثل أمه، ويحتاج لعزوة الأولاد، وخاصة أن عرفهم المتوارث أن البنت مهما علا شأنها، ومهما بلغت من العلم، ونالت من شهادات علمية، فهي مصيرها الذهاب لبيت زوجها، لذا يجب أن يحتفظوا بإرثها.. كي لا تذهب تلك الأموال أو الأطيان، إن وجدت أيضا، لرجل غريب.. كما حدث مع أخوته البنات.

كان اعترافه الوحيد لذاته أن ابنه هذا بين أخواته البنات، هو أقلهم ذكاء.. ولا بد أن تأتى له ثريا بولد يشبهه، ويحمل جيناته الشكلية، والعقلية.

مغرور عامر بما وهبه الله من شكل وسيم، ورثه عن أبيه، وعقلية فذة يعترف بأنها خلقت من رحم صلب، كمثل جمود قلب أمه الصعيدية.. ليتقاسما هو، وأمه بمرور السنوات طبع جفاء الأيام لتكملة مشوار تربية أخوته البنات منذ أن تركها أبيهم، ورحل عن الدنيا في ريعان شبابه.. لم ينسَ عامر فضل أمه حين تحدت أهلها، ورفضت الزواج من أجله.. كان، ومازال منبهرا بها، وكأنه يسمع صوتها القوى الآن، وهي تقف وسط رجال العائلة، وتقولها بحزم: إن عامر رجلها الوحيد من بعد أبيه، وأنها لن تتزوج من أخيه. كانت أمه عاشقة لأبيه، وكذلك ثريا تشبه أمه في عشقها لزوجها.

ثم يُحادث نفسه كي يرضى غروره المرضي، أن ابنه هذا ضعيف كَمثل أمه التي يجرجرها الحرف على عتبات مهترئة من وجهة نظره.

ذاك الحرف الذي يمتهن دائما أمامها من قدره، ولا يستشعر قدرته على ملامسة الإحساس.. وهو ليس بالأمر الغريب على رَجُل مثله.. فكما تعترف ثريا دائما لنفسها كي تخفف من وطأة معاناتها مَعه حين تحادث نفسها بصَوت مسموع كلما كانت وحيدة بالمنزل تجرجرها ذكريات خيباتها فيه مع كل شجاركان يحَدث بينهما.

إن عامر رجل وسيم، يخطف قلوب النساء، لكنه للأسف عديم الإحساس.. لا يشعر.

لم يدرك رَجُل القلب الجامد، والأرقام الجامدة أن البدء كان بالكلمة، وأن الكلمة نور. وأن بعض الكلمات قبور.. كما قال الشاعر الكبير عبد الرحمن الشرقاوي.

ترى أن عامر يعشق سكنى تلك القبور، ولا يخرج منها إلا كي يجرح صَاحبة الحرف الحاني ثم يعود لسكناه.

وإن اعترضت في مرات قليلة.. وعبرت عن ظلمه، وتجاوزاته مثل أنه ترك كل أمورها بيد أمه، وهي قابعة ببيتها بالصعيد تأمر وتنهى ثريا وبيتها وأولادها.

يقابل عامر اعتراضها على مثل تلك الأمور بعنف شديد، حتى كاد في إحدى المرات أن يودى بحياتها أمام أولادهَا.. مما كان له أبغض الأثر على نَفسها، ونَفس والديهَا اللذين خافا على ابنتهما، والتي هي الوحيدة بين أخوتها البنات التي تمتهن

كرامتها، وتعامل بهذه القسوة أرادوا لها أن تكمل حياتهَا ببيت الأسرة.. لكن ثريا دائما كانت ترفض.. من أجل أولادها.

لتمر السنوات القليلة بينهم من سيئ إلى أسوأ، ويصير شغل عامر الشاغل أنه يريد ذكرا جديدا يشبهه، ويشبه عقليته ذات الأرقام الجامدة.

فهو يتملكه كثيرا غرور بعض العلماء، ويعتبر نفسه في مصافهم. كذلك هو لا يستحى أن يقول إنه لا يحب البنات، وبخاصة المتفوقات، لكن هذه الخاصية أو الصفة في المرأة لا يعلنها على الملأ، لأنه ضعيف.. ويعلم أن ثريا كانت يوما ما امرأة متفوقة في مجالها الأدبي.. والذي تعرف عليها من خلاله.. لذلك يحاول دائما أن يكسر كل يوم فيها شَيْء ما منذ أن تزوجها.

الشيء الوحيد الذي ظل يقهره طوال سنوات، ومازال يخبئه أيضا هو ذكريات تجربته المريرة مع زميلته عليا بقسم الهندسة الفراغية أيام سنوات الجامعة.. ليظِل من بعد تلك التجربة متعاليا بشكل أكبر، معتبرا عليا هي التي خسرت شخصا مثله، غير مدرك على الإطلاق أن عليا اكتشفته منذ العلاقة الجامعية الوثيقة التي جمعت بينهما لتعترف له قبل أن ترحل عنه.. أن شخصا بجموده لن يلين له قلب مثل قلبهَا.. إلا بخديعة كبرى يتصيد بها إحدى ضحاياه من النساء، وللأسف صدقت عليا، وكانت ضحيته ثريا.

(٣)

تزوج منها بعد تخرجه بسنوات قليلة في الجامعة.. حين تقابل معها بفندق كبير على نيل القاهرة الساحر، والذي كان يقام بإحدى قاعاته مؤتمر علمي يحضره كبار العلماء المهتمين بعلم الهندسة الفراغية، وكانت هي وقتهَا تتدرب بإحدى الصحف الكبرى.. كانت بصحبة رئيس تحرير الجريدة الصحفي الكبير الذي كان يلمح لها بأنه يريدها.. وهي تغض الطرف عن النظر بين سطور حكاياه التي كانت صفحاتها مفتوحة على الملأ.. والتي كانت ثريا تُشبهها بحكايا شهريار ولا تبالي.

ليقتحمها شهريار آخر وها هو يستل سيفه المغرور ويعمى عينيهَا.. ليطعن القصيدة.

أخذها عامر بوسامته إلى حكايا الحواديت التي لم تعشها من قبل بطلة من عَينيه الجريئة، أثناء تناولهم القهوة في البريك.. وانشغال رئيس تحرير الجرنال بالمأكولات الموضوعة على منضدة الأوبن بوفيه.

ثم ما لبث أن جذبها بعمق رؤيته ونظريته العلمية، أثناء أخذها حديثا صحفيا مَعه.

وما تركها أبدا منذ اللحظة الأولى، وحتى انتهاء المؤتمر، لمشاعرها على مَهل.. بل ظل طوال اليوم يختطفها، ويحاصرها بعينيه بين فواصل استراحة المؤتمر، وما استراح إلا وهو آخذا منها موعد غرام.. وخاصة بعد أن أخبرته أنها من عائلة صعيدية مثله.

استهوته كحيلة العينين، بسيطة الجمال، وقليلة الكلام.. أعجبه قوامها الممشوق ووجهها الأسمر.. وجُن بشعرها المجعد المسافر بمجون بين شطآن قصائدها.. التي لم تصل لمَشاعره للأسف، ولم يدرك ماهية عنوانها.. فاستل سيف العشق وقتلها في مهدها.

تَمُرُ السنوات..

لم يكتفِ أن يحرمها من عَملها بالصحافة الذي كان سبب تلاقيهما، وتناسى مدى شغفها به، وأنه ما كان لها حلم غيره، منذ أن سعت إلى هذا العمل وقت أن كانت طالبة متفوقة بكلية الإعلام، ثم ها هو بكل بساطة من بعد الزواج، وكأنه امتلكها، وظنها قطعة أثاث بالبيت، ورفض رفضا قاطعا عَملها كمراسلة بجريدة كبرى، ليتكشف القناع عن وجهه القاسي بعد أن بدت غلظته تتسيد الكثير، والكثير من المواقف بينهما.

منذ أن أجبرها على المكوث بالمنزل، رغم معارضة أهلها هذا الأمر في البدايات.. إلا أنها رضخت على مَضض من أجل الحفاظ عليه، وعلى جنينها الأول منه.. الذي كان على ما يبدو أنه يحمل نفس مشاعرهَا الرقيقة، واستشعر ما تعرضت له أمه من غلظة من أجله، فما احتمل هو الآخر قَسوة، وعناد عامر.. وكاد أن يترك الحَياة، ويرحل بعد أن تدهورت صحتها نتيجة كل الضغوط التي كان يضعها فيها عامر، بدءا من استشعارها لمدى الإهانة التي لاقتها في بيته لتعترف لنفسها بأن هذا الرجُل ما كان يحتاج زوجة قَدْرَ احتياجه لجارية.

حتى أكملت أشهر حملها بمنزل أسرتها، ثم عادت لمنزلها حاملة طفلتها الأولى بقلبهَا.. ذاك القلب الكبير الذي خدعها وظن أنه ترك عامرا كحبيب بعد عدة أشهر من الزواج.. لتقضي معظم سنوات الزواج الأولى مجبرة على تكرار الحمل إلى أن صَار لديها كل هذا العدد من الأولاد.. لتمكُث على تربيتهم منذ أيامهَا الأولى بهذا البيت المتأنق بحروف قصائدها.. والمفترش ببساط محبتها لتحقيق ما تمنته لأسرتها الجديدة، لتكون عوضا يوما ما عما استطاعت أن تحققه بأحلامها الرقيقة، حتى صَار كل ما فيه، وما به يشبهها، ولا يشبه هذا الزوج الشهريار، متعدد النزوات الغرامية.. الزائر لفراش ليل دون حنين.

(٤)

قضى عامر هذه السنوات في تحصيل أكبر قَدر ممكن من المتعة الشخصية، والمال عن طريق عمله.. ثم أكمل العديد من الدراسات العليا.. لاهثا وراء الفرصة تلو الفُرصة.

أما هي فَكانت واقفة لجانبه.. توفر له المناخ المناسب بالبيت، وسلوتها الوحيدة أنها نسيت أمر تسلط أمه، لأنه في النهاية زوج مسئول.. يلبي كل ما عليه من مسئوليات مادية تجاهها، وتجاه الأولاد.. على الرغم من أنه لا بد أن يمرر قائمة كل تلك الاحتياجات أمام ناظري أمه لتتدخل كالعادة في كل صغيرة وكبيرة.

خريف إحدى السنوات..

مع إطلالة كل خريف تنقبض مشاعرها، ولا تدرى سببا.. ثم يذهب الخريف لحاله، ويمر طيف آخر يخبرها أنه ربما هناك شيء ما سوف يحققه صبرها على عامر يوما ما.

وثمة طيف زخات مطر حنون ستروى عطش القلب لما يهوى ويعود.

فتجدها، رغم تغير أفكارها بعض الشيء، وبخاصة تلك الأفكار المرتبطة بالماديات من أجل مستقبل أولادها- لم تترك الحرف، إذ تجدها منذ انتظام أولادهَا بالفصول الدراسية.. استطاعت أن تسكن بهدوء وتنزوي لجوار الحرف، بهذا المكان الدافئ، والمجاور للمنزل بإحدى المكتبات الشهيرة، والقديمة بوسط

البلد.. لتراشق أحرفها الكلمات أحيانا بسهام طاعنة، تجرح القلب الرقيق على أنه استسلم وخضع لعشق هذا الرجُل.. فتسكب مشاعرهَا على أسطر القصيدة.

أعرف رَجُلاً لا تعرف لغته
أن تنطق أبداً قول حَق
أعرف رَجُلاً
يتحدث قلبه بلغة عمياء
لا تُبصر أغلى الأشياء

أعرف رَجُلاً
يتحدث قلبه لغة عرجاء
لا أقدر أن أستند عليها
تخطو على نبض الروح
تكسر فِي قلبي حرفا تلو الحرف
وتكسر.. وتكسر..
تكسر كل ما فِي
ولا أدري لِمَ
تفعل بي.. وتفعل، وتفعل
ثم تتركني، لتمضى بخيلاء.

(٥)

تصل إلى مَنزلها بعد أن تفضي بمشاعرها على الورق كما اعتادت في معظم الأوقات العصيبة.. فتجدها تعود من جديد متخلصة من كل آلامهَا، وملامتها لنفسِها.

ذات ليل..

يعود عامر من عمله متأخرا منهكا.. ليجلسا معَاً على طاولة الطعام.. يتناول وحده الطعام، ودون حديث بينهما.. ظل يلتهم طعامه.. بعد أن أخذ الشاور المُعتاد.. ثم انتهى من طعامه، وذهب إلى حُجرة نومهما؛ أما هي فَظلت تنظف الطاولة، وأدوات الطعام.. لتغلق المطبخ، وتطفئ معظم أضواء الشقة من بعد ذلك، تاركة بين جنباتها ضياً خافت البريق من بعد مشوار عناء يوم طويل، وعطاء كثير.. لكنه مازال يسمح للخطوات أن تسيروتستند عليه.

في تِلك الأثناء كان عامر يُشعل سيجارة بشرفة غرفة النوم.. ثم ما إن انتهى منها وأطفأ رمادها حتى راح يطرح جسده المنهك كَكل ليلة من بعد عناء يوم عمل طويل بوزارة البحث العلمي لينام.

تطرح نفسَها لجواره.. وتتقوقع على مهد الحكايا.. كقطة سمراء يشع من ضوء عينيهَا برق ورعد ربما يشي بتمرد قادم لا محالة.

قطة سمراء قلمت أظافرها، وهذبت عيش الأيام بتِلك الأوقات التي كانت تقضيها مع كل كتاب، أو رواية، وكأنها كانت معه بين السطور لتراه بعين الحبيبة الحنونة بطل الرواية، قبل أن يأتي بهذا الجفاء، وقبل أن يغمض عَينيه بتِلك البراعة...

تفتح كتابا كانت بدأت قراءته في الليالي الفائتة.

ليقول: "إطفي الأباچورة عايز أنام".
تندهش أنه مازال مستيقظاً.. وتقول:
-"أوكى.. أكمل قراية بالليڤنج".
- "نسيت أقولك إني مسافر قطر بعد يومين.. ٣ شهور وارجع.. يكُون شريف ابننا شَرَّف الدنيا".

ثريا.. كطائر حزين أتعبه رحيل الكلمات بينهما فقرر الصمت..تقول: -"تَروح، وترجع بالسلامة".

لا يرد سلامها، ويغط في ثُبات نوم عَميق، دون أي ردة لهفة شوق تسبق غفوته.

تعيش ثريا مع من ماتت لجواره أنفاس عِاشق كان يوما ما متيما بها، ومع تلك الحالة من الذوبان في الكَلمات.. لتنكسر نصفين.. نصف يترنح مذبوحا على طرقات هوى قصائدها الشعرية، ونصف آخر مسجون قَيد طوق رَجُل لا يشعر بكونها امرأة تتحرق شوقا لفك أسر طلاسم قلبهَا العاشق له وللكلمات.

(٦)

بالصباح..

تعد له الفطور مع الشاي الساخن، فيتناوله دفعة واحدة، ودون كلمة يخرج مُسرعاً.. مغلقا باب الشقة خلفه، مدخرا في حوزته أي كلمة طيبة يطيب معها الصباح.

اعتادت كل هذا، وظلت هكذا لسَنوات تلتقط الأنفاس من بعد خروجه في كل صباح.. ثم تتمدد على شواطئ الكلمات لتجرفها الأمواج بلا هوادة حتى تغرق، وتسقط بقاع البحر.

تسائل عنه اللآلئ، والأصداف عَلها تسمع وشوشات تنبئ عن عنوانه بقصيدة تائهة.. فلا تجد إجابة للسؤال.. لتنتشلها سفينة الأُمنيات من هذا الغرق المحتوم، وتسافر بها حتى الوصول.. وما إن تصل حتى تعاود الغرق، فتسقط ثانية بين أمواج بلا شطآن لتغرق بقاع البحر باحثة عن عنوانه بالقصيدة.

تَمُرُ السَنَوات..

قررت ثريا أن تضع تصرفات عامر القاسية جانبا، من بعد سَفره للعمل بدولة عمان، وعودته بأجازات قصيرة.

قررت أن تَفيق لنفسها ولأولادها.. وبخاصة بعد أن كانت النتيجة المؤسفة لكل ما مرت به من انتكاسات نفسية أثناء حملها الأخير كانت أثرت عليها صحيا، وعلى الجنين وكادت تفقده، وتفقد حياتهَا مَعه.. لولا رحمة السماء عليها وعلى

أولادهَا.. بعد أن كادت ترى الموت المحقق.. ليخرج وليدها للدنيا معاقا.. من بعد عملية ولادة متعثرة أثرت على خلايا مخ الطفل، وهكذا ضاع حلم عامر الذي ظل ينتظره.

يَدق هاتفها الجوال.. صديقتهَا الوحيدة منذ سنوات الدراسة ندى، والتي ساعدتها مؤخرا بعمل صفحة شخصية باسمها على الفيسبوك، لتكتب بها الشعر كما تهوى بعيد عن سطوة عامر.

ندى: هاي ثريا.

ثريا: هاي ندى.

- مُفاجأة هاتعجبك.

- الموسيقار هاني عمر مع رمزي ياسين بأُمسية شعرية بكرة إيه رأيك؟

- موافقة طبعا.

- أحجز تذكرتين؟

- أوكي.

تنتهي المكالمة بينهما على وعد باللقاء في الأمسية.

الموسيقار هاني عمر لا تدرك ندى أي سبب لانشغالها بهذا الرجُل.

وما هو السر وراء البحث عن أعماله، وأماكن إقامة حفلاته.

ولا تدرى إن كانت تحضر له هذه اللقاءات لتستمتع بموسيقاه مع أشعار رمزي ياسين.. أم كما تَشعُر هي أن الأمر لا يتعدى بعضا من دفء الأوقات، الذي يبعث في تِلك الحَياة الراحة النفسية التي تزيح وحدة الأيام عنهَا، وهي تسافر مَعه بمساء هادئ النسمات كلما أتت إليه.

(٧)

تعلم أنها تُحب الشِعر، وبخاصة أشعار ثريا، وأشعار رمزي ياسين، ولا تدرى ما الذي يشدها للسؤال، ويتركها حائرة بعد أن تترك القاعة مُصطحبة ثريا وموسيقى هاني والكلمات.

ثم تسأل ثريا عما الذي يجعل نظراته تشرد ناحيتها وتترك سطور النوتة الموسيقية.. تجيبها أنها تَشعُر أن هاني عمر يحبها ويختصها بموسيقاه، ونظراته.. لتجد ندى نفسها منذ تلك الليلة بالذات، ومع آخر كلمات القصيدة التي ألقى بها رمزي، وهي تلاحقها عَيناه مع تلك الأبيات.

ألمح أشواقا تفر منى..
تلهث خلف عطرك سيدتي..
حائر أنا.. تلفحني رائحة الحنين
ولست أدرى لِمَ أراكِ تهربين!؟
شريدا أنا..
أعدو خلف ظلك..
ولا أدرى
أأبحث أنا عنكِ؟، أم أبحث عني؟
صدقا.. لا أدري.. لا أدري!
لأعود ثانية..
شريدا..
أعدو خلف ظلك..
تلهفني رائحة الحنين

فأبحث عنكِ
ولست أدري
أين أنت؟
وبأي شريان بقلبي تمكثين؟

تصل لبيتها بعد أن أوصلت ثريا لبيتها، تخلع عنهَا ثوبها الحريري الأزرق الفضفاض.. الذي كان مسافرا رغما عنهَا مَعه.. وهو يعزف على وتر القَلب الحَزين حتى راحت الروح مَعه بين النجوم، لينطلقا بين سماوات سبع، فكادت رحمة السماء تزيح عنهَا ذاك اللون القاتم الحَزين، وتتحسس عيناهَا ألوان قوس قزح.

تتساءل.. لِمَ هذا الرجُل يقتحمها هكذا؟

أهي تهرب من قيظ أيام كانت تَشعُر فيها بنيران أحزان كانت تأكل وحدة القَلب القاسية، وكلمات لا ترحم من أناس لا يعرفون أن يتركوا كل إنسان لحاله.. بعد أن توفى زوجهَا ضابط الشرطة الشهيد منذ سنوات بإحدى عمليات مكافحة الإرهاب، وتركها دون أولاد.. حَزينة عليه، وعلى نفسها حتى وجدت ذاتها بعد حُزن طويل.. بين هؤلاء المثقفين والوطنيين بهذا "الجروب".. الذي كانت قد أخذت معها ثريا للانضمام له.

كانت تجمعهم المناقشات، والندوات، وقراءة الشعر، وحُب الموسيقى، وحُب هذا الوطن الجميل.. حتى قابلت الموسيقار الشهير هاني عمر، والشاعر المصري الجميل رمزي ياسين.. بعد خمس سنوات من الثورة.

ظَلت هكذا طوال الليل تأخذها الذكريات معهم جميعا، وتعود بها عند لَحظات تلك الليلة التي جَمعتهم بالأمسية الموسيقية الشعرية.. حتى غفت عيونها، ونامت.

ندى ذات ملامح تجمع ما بين جمال الروح، وخفة ظل تستدعيك لحلو الضحكات مع كل حكايا اللقاء.. هي صديقة ثريا "الأنتيم".. لكنها لم تتفق معها في أسلوب الحَياة.

تعترض على ضعفها أمام عامر، وتندهش من صبرها على نزواته التي تصل أصداؤها إليها، وتندهش أكثر من هذا الكَم من الأولاد الذي أنجبته منه.. على الرغم من كل تلك المعاناة التي تعيشها مَعه.

أما ما يجمع بينهما دائما فهو الصداقة الحقيقية، والمكاشفة الصادقة، وحبهما للشعر.

تَمُر السنوات
ذات صيف
على مَهل احتسي قهوتي
أرتشف من رائحتها صحو ضوء
ربما تولد الأحلام من رحم النهار
أو عَل فَرحة قدوم صباح جديد
توقظ نعاس القَلب من غفوته
أحب البكور
وأتحسس الخطو ببساتين الأمل

وبالمساء أتلحف بحنيني لعينيك
ثم يعود الصباح، ويعود، ويعود
لأحتار لأمري.
كُلما عاد وعانقت قهوتي وسافرت بحلمي
ولست أدرى لِمَ يطرحني السؤال على طاولتي؟
أي شيء هذا الذي يخطفني، ويقذفني لدوامات تؤرق طعم الأيام
وتعود بي لتَسكن ذاكرة القلم

ثم تطفو على وجه قهوتي
وتطغى بأشواق لا تستكين!؟
أهو اعتياد... أدمنه الحنين؟
أم اتشاح ثوب صباحاتي بسواد ليل فائت
لم يغادر من سنين؟
أم هو ارتيادي السير؟
فوق شوك انكسارات الألم
لتباغتني وتطفو عنوة
فوق وجه قهوتي
ثم تسقطني ثانية لهاوية الندم
ليتوقف مداد الروح
ويجَف منى القلم.

(٨)

تترك ثريا القلم جانبا، بعد أن سمعت صوت ابنها وهو ينهر أخواته. تترك الشُرفة بعد أن تركت قهوتها على الطاولة الجانبية، لتقف بينهم حائرة.. يقتلها الغضب، ولا تدري ماذا هي فاعلة بأمر هذا الصبي الذي يحاول أن يتقمص شخصية والده بكل ما فيها.

تغلبها حيرتها ولا تجد منها فكاكاً للحظَات، ثم تقرر أن تتصرف بحسم. فتهدئ من روع البنات.. ثم تأخذ الولد من يديه بلطف كي لا ينفر منها. تَتذكر عامرا وهو يزرع هذا النفور في نفس ابنهما منذ البدايات حتى صَار الولد شيئا فشيئا.. لا يطيقها، ولا يطيق أخواته البنات.

تَكاد تبكى وهي تسير بذات الطرقة الضيقة الطويلة التي تخنق الهواء بصدرها كُلما أتتها لتمر منها.. لكن لا مفر. فهذا الطريق الضيق الطويل هو الوحيد الذي يقود إلى حجرات نومهم. تصل بِه إلى حُجرته.. ثم تغلق عليهم الباب.. تستعيد مَعه، ولأول مرة تعنفه، كل تصرفاته التي لا تطاق معها ومع أخواته.. يَنظر إليها بلا مبالاة.. تتركه وتخرج مغلقة وراءها باب حُجرته، بعد أن قررت ألا يخرج منها حتى الصباح.

تتصل بندى عَلها تفلح في أيجاد حل معها لهذا الولد العنيد.. تقترح عليها ندى ضرورة الاستعانة بمعالج نفسي كما نصحتها كثيرا، وهي كانت ترفض أن يخضع ابنها لطبيب نفسي.. توافق ثريا، وتأخذ منها رقم الطبيب الذي كانت قد رشحته لها من قبل لتقوم بالحجز عنده.. ثم تأخذ جانبا بحجرة نومهَا لتجلس على

الفوتيه الذي يجاور مقعد عامر الهزاز، وتستغرق في التفكير العميق بمشكلة ابنها، كي تستطيع أن تخرج منها بسلام.

يكفيها ما فيها من عامر وتغيُّبه عن البيت معظم الأوقات وإلقاؤه بكل مسئوليات البيت والأولاد فوق أكتافها.. يكفيها ابنها الآخر المعاق حركيا وذهنيا منذ أن خرج إلى الدنيا.. يكفيها ما سمعته من إحدى المعارف بالنادي ورفضت التعليق عليه، وكأن الموضوع لا يعنيها لكن بالقلب حرائق تكاد أن تحرق تلك المرأة، وعامر وتلك التي لا تعرفها وكانت مَعه.

علمت ثريا من نبرة صوت السيدة أنها قاصدة أن تجرحها وتشمت فيها، فما أعطتها تلك الفُرصة.

وهي تلقي على مسامعها أنها شاهدت عامرا بصُحبة الدكتورة سحر قريبتها الجميلة، ذات الأصول العريقة، يتناولان العشاء بمطعم شهير بالزمالك.

تعلم أن زواج عامر منها كان دافعه الأول ثقته في أخلاقها من بعد عدة مواقف بينهما، لم تكن تدرك ببراءتها، أنه كان يقوم بمحاولات ناعمة من أجل إثبات نظريات يحفظها هو، وأمثاله من الرجال.. ليطبقوها على الفتيات.. إذا قرروا أن يختاروا شريكة العمر، وأم العيال.

وإذا نجحت إحداهن تحظى بالشرف العظيم بالزواج من هذا الشهريار، والفارس المغوار، الذي لم يدرك أنه ربما بيديه يغير يوما ما من الجوهر النبيل لهذه الفتاة.

نسى عامر كل شيء، ونسى تحملها لنزواته، وتنازلها عن طيب خَاطِر عن أبسط الأشياء، نسى أنه لولا كل هذا وأكثر ما كان اليوم هو عامرا حديث مجتمع النميمة.

حزينة أنها لم تقضِ يوما ما سهرة مَعه في أي مكان خارج المنزل، تركت ثريا كل ما فيها من طموحات كبيرة، من قبل أن تعرفه على عتبات منزله ليلة زفافهما من أجله. كي يتفرغ للحصول على الدراسات العلمية الكثيرة التي قام بها.. وكي يصل لهذه المكانة العلمية المتميزة، وكي ترضيه بعزوة الأولاد، وها هو يحاول أن يبيع مشاعرها على قارعة طريق.

(٩)

تعلم أنه لن يبيع أم العيال لكنه باع قلب ثريا.. وتعرف أنها سمحت أن تتمزق كثيرا منذ السنوات البعيدة من أجل عشقه، وأولادهما.. ثم ها هي تقتل من بعد تأكدها من خبر زواجه من أخرى طمعا في مكانتها، ومكانة والدها العلمية.. صحيح أنها علمت أن تلك المرأة مطلقة، ولن تستطيع أن تنجب أولادا بهذا العمر، لكنها امرأة جميلة، وتزوجها عامر بالفعل.. لتتكوم طوال شهور بحجرة نومهَا لا تدرى أمها أو أخواتها، وأولادهَا، وأي أحد ما بها.

أخفت عنه، وعن الجميع الحقيقة، عدا صديقتهَا ندى التي قررت أن تحكي لها من بعد عدة أسابيع قليلة.

ثم استجمعت قواها ثانية.. من بعد فترة طويلة، كانت فيها كارهة للدنيا ولِمن فيها.. وقررت أن تنفذ ما قالته لها أمها ذات يوم بالحرف.. حين شكت إليها أنها تعيسة مع هذا الرجل، وأنها لا تجد زوجهَا الذي تحبه، وتريد أن تطلب منه الطلاق. نهرتها أمها الصعيدية حِينهَا وقالت لها: "بلا حب.. بلا مسخرة.. إنتي معاكي راجل ولا أي راجل.. بتلاقيه في بيته وسط عياله آخر الليل.. راجل مركز اجتماعي.. بيشتغل كتير، وبيصرف على بيته، وبيجيب الفلوس اللي تكفيكم، وبزيادة.. لو إنتي ست عاقلة تعرفي إن مالكيش عنده فوق كل ده غير فلوسه".

هذه الكَلمات أخرجتها من غفوتها التي طالت، وقررت ألا تخبره أنها علمت بزواجه كي لا يجاهر بالأمر، ويزداد شراسة.. ثم أرادت أن تقف في وجهه قبل سَفره لعمله بأيام، كي تربك تفكيره، وتطلب منه الخيار بين أمرين لا ثالث لهما: إما الطلاق، وإما أن تترك له أولاده، أو أنه يكتب لها معظم ثروته التي هي

بالأساس نتاج رحلة كفاحها، وتنازلها عن كل حقوقها طوال عِشرة خمسة عشر عاماً.

فما كان منه من قبل يوم واحد لسفره.. إلا التنازل لها عن معظم رصيده بالبنك.. إلى جانب رصيده بالبورصة ثم سافر.

يعلم عامر أنه ترك حاله، وماله مع أم العيال شبيهة أمه، والتي ترك لها هي الأخرى أرضه.. حتى لا يثبت أنه رجل صاحب ثروة حين ترفع عليه الزوجة الثانية القضايا بعد أن طلقها.. ويعلم أنه بنزوة أخرجته لعام كامل عما اعتاده من نزوات.

يعلم أن عليه الرجوع إلى بيته.. بعد أن تخلص من الزوجة الأخرى التي رفضت استمرار الحياة بينهما، لأنه رجل رجعي.. لا يجعلها تتصرف بأمواله، وبحياتها كيفما شاءت.

وها هو عامر يرحل وهو يعلم أن أولاده وأمواله في أمان مع ثريا، ودون انتظارها منه قبلة وداع.. تودعه.. فجذوة الحب التي كانت مشتعلة بأيام الزواج الأولى، وظل رمادها لسنوات، انطفأت شيئا فشيئا، بعد أن داس عليها بقدميه منذ السنوات الكثيرة، وأجهز عليها بتلك الزيجة.. كأنها كانت سيجاراً بين أصابعه، ثم وضعه بين شفتيه، وما إن أشعله حتى أسقطه على الأرض.

(١٠)

حين يخذلك الآخر، وبخاصة لو كان يوما ما الأكثر قرباً.. الأكثر حباً.. لا تحاول أن تكسر صور جميلة.. ربما رسمتها الأيام أو السنوات أمامك.. أو أمام العيون الصغيرة.. مادامت حدود المشهد الخاص لم تخرج عن حدود دائرة القَلب.. لا تكسروا القلوب الصغيرة بالوجع.. فلربما سوف تزورهم بسنوات العمر أوجاع جديدة.

هكذا أخفت ثريا أوجاعها من عامر عن أولادهَا، وعاشت لهم، ولها مكتفية بنصيحة أمها، وبالثروة.

أما صديقتهَا ندى.. فقد نالهَا نصيبهَا من الوجَع، وخذلهَا الحلم هي الأخرى، فأحلك نهار دنيا ظنت أنها سوف تصير حتماً سعيدة، وضاحة بصُحبة رَجُل حالم مثلهَا يكمل نصفهَا الآخر.

شعر بحبه الجارف نحوها، وظل يداريه بالبدايات.. ثم بعد أن رأى أن دنياه لن تصير دنيا إلا بها.. أظهره بقوة. أما عنها فكشفت هي الأخرى له عن سِر الهوىَ..، وصرحت بأنه من صالحها على الدنيا من جديد.. لتكتشف من بعد كل هذا الحب.. أن هذا الرجُل الذي طارت مَعه، ومع موسيقاه الحالمة حد السماء الصافية، حتى أغمضت عيون القَلب وتلحّفَت بنجوم ليلِ، هو ذاته من يطرحها بلا هوادة على أرض خشنة.. قاسية.. لا ترحم، بعد أن عَاشت ستة أشهر كاملة لم تحتسبها من عمر الزمن، حيث ظَلت وكَأنها نائمة بحلم جميل ولا تريد أن تَفيق، إلى أن أجبرها أحدهم ذات يوم أن تَفيق، وتصحُو من غفوتهَا، وهو يقتحم عليهَا مكان عَملها دون سابق موعد، وينزع منها ثقتها بالأيام التي وعدها بها هاني،

والتي ما تخيلت للحظة أنها كانت وعود واهمة بأيام كاذبة؛ وعود خادعة، ضللت طبع هدوء أيامهَا، وقلبتها رأسا على عقب.

أتىَ يُخبرها هشام بك بصوته الأجش أنها لن تقدر على مواجهة سطوته، ومكانته، ومركزه المالي في المجتمع، وأنها إذا ظَلت مَع هاني، وما تركته ورحلت، سوف يكون له معها شأن آخر.. فهو يفعل أي شيء، وكل شيء من أجل أخته، والحفاظ على بيتِها وأولادِها.

أتىَ إليها هذا الرجُل ليسقط بكلماته كالمصيبة الثقيلة على رأسِها، ثم تركها، وهو يطيح بقدميه، ويشيح بيديه، وكَأَنه يريد أن يزيحَها من على وجه الأرض.

ودون أن تستوعب هي، من يكون هذا؟ وعن من يتحدث؟ ودون أن تَنطق بكلمة واحدة ترد بها عليه... يرحل، لتكتشف من خلال مواجهتها لهاني، وهي في حالة انهيار تام، أنه بالفِعل متزوج من ابنة عمته، وأب لولد وبنت، في المرحلة الإعدادية من التعليم، وأنه تحمل من أجلهما مرض زوجته النفسي، لكنه منذ أن قابلها أحبهَا، ولذلك هو لم يصارحها منذ أن شعر بهذا الحب الذي يعتبره أعظم ما حدث بحياته، وأنه حاول كثيراً أن يهرب من هذا الحب الكبير الذي سيطر عليه، ولم يقدر على ذلك، وأنه من الصعب عليه الاستمرار مع زوجته.. أما أولاده فهم سيظلون أولاده مهما حَدث بينه وبين أُمهم.

تستمع إليه، وهي تتمزق، وهي ترى صورا جَميلة لكل هذا الحُب الكبير الذي كان بينهما تتفتت أمام عينيهَا على صخرة واقع مرير.. ثم ترجوه أن يتركها ويرحل، فيرحل تاركا لها نظرة من عَينيه تؤكد أنه حتما سيعود.

بعد مرور أسبوع

يحاول هاني الاتصال بها فيجدها قد أغلقت هذا الرقم، فيذهب إليها بعملها ليجدها في أجازة لمدة شهر.

عاش هذه الفترة وكَأنها بَعدت عنه سنوات.. ليبقى في حيرة من أَمره، لا يدري كيف يهرب منها. وهو في اشتياق جارف إليها لا يجد له ملجأ.

تعود لتجده كان قد ترك لها خطابا بصندوق بريد العُمارة التي تَقطن بها.. يرفض فيه هذا البعد الذي لن يقوىَ عليه طويلا.. تطوي بالخطاب وتمزقه.. لتمر عليهَا الأوقات حَزينة قاسية.. ليأتيها في ذات اليوم بالمساء، ويدخل بيتهَا لأول مرة.. ليراها حَزينة شاحبة.. فيشعر بقلبه ينكسر عليهَا ثم يرجوها أن ترأف بحالهما، فتجيبه في انكسار بسؤال عصي الجواب على قلب رجل محب: ومن يرأف بحال زوجة مريضة مسكينة، وولد وبنت في أشد الاحتياج لوجود أب متفرغ لهما تَماماً في هذه المرحلة الخطيرة من العُمر!؟

أنا لا أقوىَ على تحمل ذنب أحد، ومن المحتمل لو كانت ظروف أُمهم مختلفة لكان لأمرنا شأن آخر.

هاني: قوليها صريحة إنك ضعفتي وكلام هشام أثر عليكي.

ندى: أرجوك ما تفكرنيش بالموقف السخيف اللي سَمحت لنفسك إنك تعرضني ليه... إنت حتى مش قادر تشوف غير اللي إنت عايزه وهو إنك مش قادر تستغني

عن الست دي.. لكن إنك تراجع نفسك، وتيجي تعتذرلها عن إنك خدعتها وداريت عليهَا حياتك الخاصة اللي هي في علاقة زي علاقتنا لا يمكن تكون خاصة.

- ما قدرتش.. خفت إنك تضيعي مني.

- طيب ما هو أنا فِعلاً ضعت منك..لإنك ما شفت غير نفسك، ولإنك ما قدرتش وخفت تصارحني.. وللأسف فكرت با أنانية مطلقة.. وأنا ماقدرش أَبداً أقبل على نفسي وأنا في العمر ده إنه يشاركني حياتي راجل ماقدرش يصارحني لأنه خايف، وعرضني لموقف سخيف.. على فكرة ما ظَنش أَبداً إن أنا وإنت اتنين مراهقين.. أو لسه في بداية حياتهم... ومُش شايفين غير بعض.. هاني من فضلك محتاجة أرتاح.

يخرج من عندها وهو حزين، بعينيه نظرة شهريار المخذول أمام شهرزاد الليالي، نظرة المهزوم المعتذر والمعترف بأنه بالفِعل ضعيف ولم يعد يملك أي شيء من الممكن أن يقدمه إليها ليرضيها.. عزاؤه الوحيد ربما موسيقاه التي لن ترحل وستبقى هي رسول المَحبة الوحيد الذي ربما يشفع له عندها يوما ما.

ذات ليل تتصل بها ثريا تليفونيا لتسمعها آخر ما كتبت.. فتقول:

تُرى ماذا عسَاك
وأنت ما عُدت تستشعر زهوك
وسيفك المسرور يترنَح مهزوماً
أمام الحكايا
في كُل ليلة كاد أن ينحَر فيها دمي

ثم من بعد حديث قصير، تخبرها ثريا أنها انتهت من كتابة أول ديوان لها سوف تطبعه.. فتهنئها ندى، ثم يغلقان الهاتف.

وتطفئ مصباح الأباچورة التي تجاورها.. وتنام.

تمت

الفهرس

لحظات فاصلة	٧
رحلة إلى إسطنبول	٢٤
كريمة	٣٢
أشياء بسيطة	٤٣
حمل في ثوب ذئب	٥٦
أيامها الحلوة	٦٤
غيرة نسائية	٧٢
شباب ٨٦	٨٢
رسائل من السماء	٩٦
صَاحبة السعادة	١٠٦
عودة إلى المستقبل	١٢٢
هزيمة شهريار..	١٤٥
الفهرس	١٧٤

رسالتنا :

نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017